سبعة أبواب

عبد الكريم غلاب

دار المعارف بمصر

سبعة أبواب

عبد الكريم غلاب

سبعة أبواب

دار المعارف بمصر

١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

تقديم

بقلم الدكتور محمد مندور

يلاحظ توفيق الحكيم بحق فى كتاب « أدب الحياة » أن الأدب قد أخذ يفضل الأوراق الخضراء على الأوراق الصفراء . وهو يعنى بذلك أنه قد أخذ يفضل تجارب الحياة الحية المعاشة على غيرها من مصادر الأدب : كالتجارب التاريخية أو الخيالية . ولا بد لكل إنسان من أن يخوض تجارب حياته الحلوة والمرة ، ولكن كل إنسان لا يستطيع أن يحول تلك التجارب إلى أدب وفن . بل يستطيع ذلك من يملكون القدرة على الاستبطان الذاتى وصدق الملاحظة ووضوح الإحساس ، ثم القدرة على التعبير . ولحسن الحظ يملك الأستاذ عبد الكريم غلاب كاتب هذه الذكريات كل هذا ، فهو قادر على أن يستشف مشاعره كما هو قادر على أن يعبر عنها تعبيراً عربياً سليماً

وهذه الذكريات تصور تجربة حية عاشها الكاتب فعلا وهى تجربة السجن ستة أشهر رهن التحقيق بتهمة الدعوة إلى الإخلال بالأمن أيام قيادة الملك محمد الخامس التيار الوطنى ضد الاستعمار الفرنسى لتحرير الوطن المغربى من سيطرته .

وقد تناول الكاتب هذه التجربة من بدئها عند ما جاءه رجال الشرطة

للقبض عليه فى بيته، ثم إلقائه فى بدرون مركز الشرطة الذى يسميه الكاتب بالكهف حيث التقى بأنواع مختلفة من المسجونين بتهم شتى . ورسم صوراً لعدد من هؤلاء السجناء إلى أن انتقل إلى السجن رهن التحقيق . حيث التقى بعدد من الوطنيين مثله ، وعاشر بعضهم عن قرب . كما وصف دار القضاء التى استدعى إليها ، وما تعج به من حركة وطنية فضلا عن الصور الساخرة التى رسمها لعدد من الحراس الفرنسيين والمغربيين . ثم ختم ذكرياته بأمر الإفراج عنه دون محاكمة ولا إدانة ، وعودته إلى بيته وإلى زوجته الشجاعة وابنه الطفل الحبيب .

فهذه الذكريات تكون فى الواقع قصة مسلسلة الأحداث ، وإن يكن الجانب القصصى فيها ثانوى الأهمية إلى جوار المضمون الإنسانى والوطنى الذى صبه الكاتب فى هذا الإطار القصصى وبخاصة تلك الروح المعنوية العالية التى صورها الكاتب فى هذه الذكريات . حيث نرى إيمانه بالهدف الوطنى الشريف يهون عليه وعلى زوجته الأم تلك المحنة ويجعله يتقبلها راضى النفس بل متشوقاً إليها لا متوقعاً لها فحسب . كما تشاركه زوجته نفس الإحساس وهو بذلك يعبر تعبيراً صادقاً عن الروح الوطنية العالية التى عمرت بها فى عصرنا الحاضر قلوب الوطنيين من العرب فى جميع أقطارهم حيث أدركوا أنه لا سبيل إلى تحرير أوطانهم بغير البذل والفداء .

وهذه الذكريات تجمع بعد ذلك بين دقة الوصف للكهف والسجن وصدق الاستبطان الذاتى واستجلاء المشاعر التى تثور فى نفس من حرمه

السجن والقيد من نعمة الحرية ، وفرحته باستطلاع زرقة السماء وإطلاق البصر فيها بعد أن سدت أمامه آفاق الأرض بجدران السجن . ثم تحليل الإحساس بفقد الحرية خلف جدران السجن ، وما يقابل ذلك من إحساس مضاد بالتحرر داخل السجن من قيود المجتمع ، ومواضعاته وخلو الإنسان إلى نفسه وتحرره إزاءها ، وهى مقابلة بالغة الدقة والرهافة .

وهذه الذكريات تجمع أيضاً بين الروح الشعرية وروح السخرية ، فالكاتب يرتفع فيها أحياناً إلى سموات الشعر كما يجنح أحياناً أخرى إلى نوع من التهكم والسخرية اللاذعة من المتآمرين وشرطتهم التافهة الحقيرة ويلجأ فى عدد من المواضع إلى القصص الصغيرة التى تنطق بهذه السخرية اللاذعة مثل رشوة هذا الحارس أو ذا بقليل من الطعام أو المال أو بالوعود الخلابة .

وهكذا اجتمعت لتلك الذكريات عناصر التشويق المختلفة مما يدفع إلى المضى فى قراءتها وتمثل الروح الوطنية الشجاعة التى تنصب فيها دون أن تنحرف إلى الخطابة المجلجلة أو المبالغات الساذجة فهى دائمة القرب من واقع حياتنا العربية المعاصرة وواقع النفس البشرية الشريفة ، مما يجعل منها تجربة تجمع بين المتعة الفنية والهدف الوطنى الرفيع ، ويجعل من قراءة كل عربى لها واجباً وطنياً ومتعة فنية وإنسانية فى نفس الوقت .

محمد مندور

١

لم تكن المرة الأولى التى عرفت فيها السجن . ولذلك لم أكن لأتهيب السجن كما يتهيب الأطفال باب المدرسة لأول مرة

ولم أباغت بالسجن يصدر حكماً من فم القاضى أو رئيس الشرطة ، كما يباغت الخارجون عن القانون حينما لا يتوقعون نتيجة ما يرتكبون ، بل إنى كنت أسعى إليه عن عمد وسبق إصرار كما يقول رجال القانون .

وكانت الشهور المشحونة بالتيارات ، تتجمع فى الأفق لتنذر بالكارثة ، تؤكد أن المصير هو باب السجن .

فلم أكن لأقف من وراء هذه التيارات منكمشاً أو مختبئاً من أن يصيبنى رشاشها ، بل لم أكن لأقف متفرجاً لا انتمائياً ناشداً السلامة وحسن المآل ، وإنما كنت أحاول أن أوجه هذه التيارات فى الاتجاه العكسى الذى كانت تريده لها ظروف الوضع ، وكان يريده لها المتصرفون والمتملكون وسادة الوضع . وكان بوسعى أن أجد طريق السلامة فى الوقوف على الشاطئ موجهاً « من بعيد » ولكنى كنت — وما أزال — أومن بأن الحياة أن تكون فى قلب المعركة لا على شاطئها . وكنت أرغب فى أن أحيا مع الأحياء ، لا أن أعيش كما يعيش العائشون يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق .

وكان بوسعى أن تختزن ذاكرتى نصائح « بعض » الأصدقاء : إياك وطريق السجن فإنه مهلكة للجسد ومضيعة للوقت .

ولكنى فضلت أن أعيش متحرراً من سيطرة الجسد ومن أسر الوقت. فلم يكن جسدى ولا وقتى بأقدس عندى من جسد الآخرين ووقتهم ، الآخرين الذين يمثلون الفئة الواعية المؤمنة من المواطنين ، والذين لم يكونوا ليفكروا فى أجسادهم وأوقاتهم إزاء المحنة التى تعيشها بلادهم .

كنت إذن أعرف المصير وأسير فى طريق السجن راضياً مطمئناً .

وقد دهشت حقاً إذ مرت مناسبات مهمة لتصفية الاستقلاليين والمثقفين والعاملين ، ولعزلهم خلف الأسوار العتيدة أو وراء الأسلاك الشائكة والمراكز المنعزلة ولكنى رغم الدهشة كنت أومن بأن دورى آت لا ريب فيه ، وأن فتنة القائمين على شئون التصفية لن تنسيهم استقلاليتى ، وإن أخرت أجله عندهم إلى حين . وكنت أطمع حقاً فى أن يطول هذا « الحين » حتى أستطيع أن أساهم فى عكس التيار . ولعل القدر استجاب لى فتأخر الحين بضعة أشهر ، أستطيع أن أزعم أن التيار بدأ يتحول فيها . ولا أشك فى أنى لم أضع فيها فرصة أو لحظة من ليل أو نهار لم أعمل مع من عرفت من زملائى على عكس هذا التيار . وكان السجن بعد ذلك جزاء وفاقاً .

فليس أدهى — حتى على المظلوم — من أن يظلم ظلماً بليداً ، فإذا لم أحاول أن أنتزع من الظالم وسيلة ظلمه فما يصيبنى منه هو الظلم البليد

الذى لا يرضى عنه الثائرون على الظلم وعلى البلادة .

واقتربت محنة عشرين غشت وابتدأت تتجمع نذر الكارثة فى الآفاق ، وبدأ حزام الحصار يضيق على الملك الأسير فى قصره ، وبدأت الأمة تتحرك ، وكانت الجماعة الصغيرة تعتصر فكرها لتجعل من الكارثة بداية معركة للتحرر ، وبدأت عيون الظالمين ترصد اليد المحركة لتخنق النفس الذى ما يزال يتردد ، وانطلقت تقص الأجنحة من هنا وهناك لتصل إلى القلب ، وفى القلب كنا — الجماعة الصغيرة — نعمل جادين لعكس التيار .

ونقل خط الهاتف التعليمات لوجدة ومكناس ومراكش والدار البيضاء وفاس ، وإلى كل ركن يوجد فيه قلب استقلالى ينبض ، ومع خط الهاتف تنقلت عيون الظالمين ترصد المنفذين والمدبرين ؛ وما كادت انطلاقة وجدة يوم ١٦ غشت ترن فى آفاق الدنيا ، حتى كان الظالمون يترصدون كل استقلالى فى كل مكان ، فما كانت مفاجأة وجدة لتعميهم عما يدبر فى الخفاء ، وما كانوا من البلادة بحيث يدبرون مؤامرة عشرى غشت وفى البلد قلب ينبض بذكر محمد الخامس أو حزب الاستقلال .

وأطالت « الحين » إغفاءة قصيرة منعتنى أن أكون على موعد مع الشرطة فى « مركز الجماعة » فقد انطلقت إلى الموعد ، ولكن زميلاً استبطأنى قليلاً ، فغفت العين فى اللحظة التى كانت الشرطة تبحث « المركز » وتسوق بقية الزملاء إلى مراكز الشرطة فى الرباط ومكناس .

وكان يوم ٢٠ غشت ، وكتب على أن أشهد المهزلة وأنا شبه حر ،

وأن أقف فى شرفة المنزل لأشهد خيالة القبائل » « نختل » الرباط مسلحة « بالعصى » ليقال عنها إنها قدمت تبارك العمامة ، عمامة أسر الملك .

وأصبحت أتمنى أن أستطيع عملاً ما أو أختنى خلف قضبان الحديد ، فليس يضير قلباً يشعر مثل ما يضيره أن تنتهك مشاعره ثم لا يستطيع للانتهاك صداً ولا رداً .

وكانت زوجتى أشفق منى على ، فما استطاعت أن تتصور أن أظل « حراً » فى بلد كل من فيه أصبح عبداً ، فما كادت ترى سيارة لرجال جيش الاحتلال تقف بالقرب من المنزل حتى بادرتنى لقد جاءوا . . . أسرع إليهم . وليكن الله فى عونك .

وانتزعت الابتسامة من مرائر الألم : لى معك أيام أو لحظات ، فلا تستعجلى الأمر يا عزيزتى .

ولم تكن أيام وإنما كانت ساعات انتبهت بعدها على طرقات قوية عنيفة فانتفضت من فراشى . ولم يتبين بعد الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

كانوا أربعة يردون على تساؤلى من النافذة افتح الباب . . . فإن لنا بك حاجة

٢

وفتحت الباب فاصطدمت بصدور أربعة شداد يسدون الباب فى وجهى . وكانت صدوراً منتفخة أحسست معها أن شيئاً ما يرقد فى هدوء على مكان القلب ولكنه صلب قوى عنيف

— فلان . . ؟

— نعم . . هو أنا . . .

— عندما أمر بتفتيش المنزل . .

ولم ينتظر قائدهم إجابتى وإنما اندفع يتقدمنى . وأحاط الثلاثة بى إحاطة سوار بمعصم كان البيت هادئاً هدوء الفجر إلا من وجه قلق شجاع ينتظر فى أعلى السلم . ولم تكن هذه الزيارة مفاجئة . وإنما كانت منتظرة ، لهذا لم يكن وجه زوجتى ليرتاع ولم يستطع القلق البادى أن يخفى معالم الشجاعة ، كما أنه لم يستطع أن يكسف ابتسامة مشجعة لم يسط عليها يأس ولا هلع ولا خوف .

ودخل أربعتهم دخول المنتصر وكان أكثرهم شجاعة شاب نحيف معتز بشبابه . صحبنا صباح يوم فى القطار من الدار البيضاء حتى الرباط ، وظل يلحظنا ، ويرهف السمع لكلامنا ، دون أن أعرف منه إلا فضوله وكنت أقابله من حين لآخر فيبدى اهتماماً زائداً بالتطلع

إلى وجهى ومراقبة اتجاهات سيرى ، فلما دخل على فجر ذلك اليوم خيل إليه أنه فتح قلعة ، وأنه واجد فى القلعة ذخائر تجعل منه بطل معركة . وكان يبتسم لى فى سخرية وكأنه يقول

— أتذكرنى . . ؟ أتذكر القطار والشارع . . ؟ ها أنت ذا الآن بين يدى .

وكنت أقابل ابتسامته وسخريته بلا مبالاة لم تكن تخفى عليه ، ولذلك كان يحاول أن يرضى غروره بمواجهتى بأسئلة :

— وأين تخفى الوثائق ؟ وما عندك فى هذا الدرج أو ذاك ؟ وفى سطح المنزل ماذا تخفى ؟

وأحاول ببرود أن أظهر سخافة أسئلته وأن أجيبه على رغباته فى إهمال. وأغريته بالتسلق إلى سدة متداعية لأمتحن جرأته . . . وتسلق ، ولكنه كان خائفاً خوف الأطفال حينما يقلدون الكبار فى القيام بأعمال جريئة . وحاول أن يخفى خيبته حينما وجد حقائب فارغة . ولكن نشوة الظفر باصطياد رجل يعرفه انتصرت على كل خيباته .

وكان قائد الكتيبة متعقلا يحاول أن يفتش فى غير إلحاح ، ويمتنع عن الأسئلة السخيفة لأنه لا يعتبرها من مهمته ، فهو يعرف أن مركز الشرطة سيؤدى مهمته خير أداء، أو لعله يفضل أن يترك الحساب لمكان الحساب ولم يستنكف أن يؤنب بعض زملائه على تدخلهم فيما لا يعنيهم ، بل إنه نهر الشاب الطائش وهو يحاول أن يمزق غلاف فراش .

فقد اكتفى الرئيس بأن يجسه من أطرافه بيديه ، فلم تصطدما بشيء صلب أو بشيء غير منتظر .

ولكن الرئيس كان حريصًا على أن يجمع كل الأوراق مهما كانت تافهة ، فهو لا يفرق بين التافه وغير التافه ، لأن مهمته كانت التفتيش ونقل ما يمكن أن ينير أمام المسئولين من رؤسائه الطريق إلى تأكيد التهمة .

وكان ثالث الفرسان الأربعة مفتشاً سميناً ، تنوء ركبتاه بحمل بطنه والإضافات . . .

كان وجهه كالحاً لا يعبر إلا عن حقد دفين ، لا ابتسامة ولا كلمة إلا النابى منها واللفظ . وكنت أشعر أنه جد مقيد ، فهو — فيما يظهر — من هواة المصارعة داخل زنازن الشرطة ، أى عندما يسلب خصمه من كل إرادة . . . وهو — فيما يظهر — حقود لا يجد متنفساً لحقده إلا فى ضحايا الشرطة من المعتقلين . . . وهو فيما يظهر يجد تناقضًا بين وجوده فى المغرب ووجود هؤلاء « ليزراب » الذين يدفع بهم الطيش أن يوقظوه فى الصباح ليفتش ويعتقل هذا أو ذاك .

وكان حريصًا على أن يعبر عن سخطه وحنقه حينما يجد ورقة بالعربية لا يفهم ما فيها ، أو حينما يحدثنى بفرنسية كورسيكية فأفضل أن أجيبه بعربية مغربية ، حاول أن يثور فى وجهى فصده الرئيس ، وحاول أن يعبث بمقتنيات البيت فصده الرئيس ، وحاول أن يتمرد فيصدر الأوامر

التى تحمل بعض الإهانات فصده الرئيس ، وظل مع ذلك يأكل مقعده حتى انتهت مهمته ومن حسن الحظ أنى لم أره بعد ذلك .

ورابع الفرسان كان مغربيًّا تافهاً — وهو المغربى الوحيد بينهم — كان يبتسم لى ابتسامة صفراء لا يراها الآخرون ، وكان يترجم على ضعفه فى اللغتين ، ويردف أنه غير مسئول وأنه ينقل ما به ينطقون . . . وكان يحاول النصح بأن أطلعهم على كل شىء حتى لا يعبثوا عبث الأطفال بما فى البيت من متاع وأوراق .

وكان يقع فى امتحان هو المحنة أو تزيد حينما كانوا يطلبون إليه ترجمة بعض الأوراق أو موضوعها على الأقل ، حاولت أن أساعده فى فهم ما هو مكتوب بالعربية، ولكنى اكتشفت أنه شبه أمى ، وأنه يحاول أن يخفى على رؤسائه أميته فيستهين بما فى الأوراق دون أن يكلف نفسه التعبير عن حقيقة مضمونها .

وكان محرجاً أشد الحرج ، فقد ألف أن يتتبع السكارى والخارجين على القانون ، فإذا به أمام رجل لا هو سكران ولا هو خارج عن القانون . . . ويخيل إلى أنه كان خجلا من نفسه وهو يؤدى هذه المهمة . . ولعلهم لم يختاروه إلا لأنه يعرف التحدث بالعربية .

وأنهى الفرسان الأربعة مهمتهم بعد أن جمعوا كل ما أرادوا من أوراق . ونطق الرئيس .

— عليك — أيها السيد — أن تصحبنا

وتظاهرت بقلة الفهم :

ـ جمعتم كل ما تريدون وفتشتم . فما هى مهمتى إذن .

ـ عليك أن تصحبنا فهم فى حاجة إليك .

ـ وهل سأعود ؟

ولم يترجم المفتش المغربى سؤالى . وإنما بادرنى بالجواب :

ـ لا أظن ، وعليك أن تودع أهلك .

وكانوا متسامحين ـ أو هى أوامر الرئيس ـ فأديت صلاتى والتفت إلى زوجتى أطلب منها الصفح وأرجو لها أن تتحمل مسئوليتها بشجاعة . والتفت إلى ركن قصى من غرفة نومى . . كان ما يزال نائماً يسبح فى أحلامه اللذيذة ، فطبعت قبلة على وجنتيه . . إنه ابنى . .

كنت بعد ذلك خامس الأربعة تشيعنا عيون الجيران إلى مركز الشرطة.

٣

انحشرنا جميعاً فى سيارة صغيرة ، وكان من الاحتياط الذى اتخذه الفرسان الأربعة أن وضعونى بين أضخمهم جثة وأقواهم عضلا كان إلى يسارى الفرنسى الضخم الذى تنوء ركبتاه بحمل بطنه ، والمغربى المتبلد الذى ينوء عقله بتحمل المسئولية .

وانتفخت صدورهما فتبين لى من نظرة قصيرة استرقتها هذا الذى يثوى على موطن القلب تحت السترة فى صلابة ويقظة : إن الأربعة كانوا مسلحين بمسدسات بعيدة المدى وضعت بمهارة فى مكان يمكنهم من استخدامها بسرعة ودقة .

وخيل إلى أن العبث يكتنف عمل هؤلاء ، فقد أضاعوا ساعتين فى البحث والتفتيش وسيضيعون ساعات وأياماً فى الاستنطاق ، وما أظنهم سيضعون أيديهم على حقيقة تنير طريقهم إلى النتيجة التى يحاولون أن يصلوا إليها .

هؤلاء الأربعة . . .

ما هدفهم من هذا البحث ؟ لو سألتهم لما وجدت غير حقد يتأكل جنباتهم ، وما يدرون عما يصنعون إلا أنهم ينفذون « أوامر » ومع ذلك فهم مسرورون لأنهم ظفروا بغنيمة . . . أسير .

فيم كانوا يفكرون وهم يسوقون أسيرهم إلى مركز الشرطة ؟ يخيل إلى أن الشاب النزق كان يفكر فى أنه سيبادر رئيسه بأنه استطاع أن يظفر بالرجل الذى طالما تتبعه ، وطالما ضمن تقاريره نشاطه ، وأنه سيحاول أن يطلب من رئيسه ترك مهمة الاستنطاق إليه . فالنظرات الباردة الجافة التى كان يقابلنى بها هذا الرجل ستصبح اليوم نظرات حارة . سأذكره بيوم القبطار ويوم الشارع . . . وسيكون ذلك مفتاح الاستنطاق ، سأعرف كيف أرغمه على أن يقول كل شىء . . . على أن يقر بكل ما كان يقوم به فى الدار البيضاء . . . سأظفر بمعلومات قيمة توضع نتائجها نقطاً فى ملف ترقياتى . هذه مناسبة نادرة للشرطة السرية : اكتشاف الوطنيين وفضح مؤامراتهم ! هذه هى الفرصة التى كنا ننتظرها . . . فيها عمل وفيها ترقية وفيها مجد ، ولو ظللنا ننتظر هذا العمل وهذه الترقية وهذا المجد عن طريق اكتشاف السكارى واللصوص والخارجين عن القانون لما وصلنا . ومن حسن الحظ أن هؤلاء « الإنديجين» مطايا ذلول ، لا مغامرات ولا متاعب . . . وهم مع ذلك فى نظر الرؤساء خطرون ، فلنحد من خطرهم ونحن الرابحون على كل حال .

وتفرست وجه المغربى المتبلد فما أوحى بما كان يجول فى ذهنه ، أغلب الظن أنه لم يكن يفكر إلا فى هذه المسئولية التى ستجعله يترجم من عربية لا يعرفها إلى فرنسية لا يتقنها فى موضوعات تتصل بالسياسة ، وما يدرى عن هذا الذى يسمونه « سياسة » إلا أنه لا يروق « النصارى » ويغرم

به هؤلاء « الأطفال » من « المسلمين » . ولو وجد السبيل إلى أن ينصرف لتتبع لص أو اعتقال سكران لفر من هذه المسئولية التى ينوء بتحملها .

وكان الفرنسى الضخم بجانبى يغلى كالمرجل من حقد دفين ، يحاول أن يتحدث بفرنسية كورسيكية إلى رئيس الفيلق برموز لم أفهم مغزاها ، وأغلب الظن أنه كان يحاول أن يوهمنى بأنى بين يدى قوم خطيرين ، وأن ما رأيته منهم لا يعبر عما يضمرنى . ثم هو يحاول أن يظهر حزماً فى مراقبتى . فهو الذى اقترح أن أجلس وسطهما ، دفع ببطنه إلى الأمام قليلا ليترك المجال لذراعه الضخمة تمتد خلفى وكأنه على استعداد ليطوقنى .

وما أعتقد أن ذهنه كان يتحرك ، فهو مشغول بعقب سيجارة يراوده أن يجود ، و ينفث مع دخانه الباهت دخان طاقة . حقد تعتصر نفسه .

وكان رئيس « الفيلق » يقود السيارة فى انصراف ، وكأن مهمته قد انتهت . تقرير بسيط سجل فيه مشاهداته فى المنزل وما عثر عليه من أوراق يخيل إلى أنه كان ينظر إليها فى ازدراء... وضع التقرير فى جيبه . . وانتهى كل شىء ، بقيت هذه الخطوات التى تنهبها السيارة بين المنزل والمركز ، ثم يسلم الوديعة هذا الشخص الذى لا يعرف عنه شيئاً . . ولا يريد أن يعرف ، وهذا التقرير التافه الذى لا يحمل غير معلومات عن المنزل والأوراق التى صادرها .

وكنت أنا أهتم بمراقبة هؤلاء أكثر مما أهتم لما سيقررونه لى من مصير

تركت زوجتى وطفلى من خلفى وحيدين ، ولكنى كنت فى وضع نفسى لا يسمح لى بأن أفكر طويلا فى مصيرهما ، فقد قررت هذا المصير كما قررت مصيرى . ومما كان لى أن آسى على ما قررت من مصير كنت أواجهه فى غير مبالاة ، ويخيل إلى أن ذلك بعض طبعى ، فأنا لا أهتم طويلا لمشكلة يجب أن أخوضها لأضع لها حلاً . وأترك دائماً العاصفة تمر ، فإن ما قد تخلفه من آثار قد لا يوازى ما يخلفه الغم والانفعال والقلق فى نفسى لو أسلمت قيادى لكل هذه المؤثرات لا أقف موقفاً سلبياً من الأحداث ، ولكنى لا أدع هم الأحداث يركبنى أو يرج أعصابى ، وأعتقد أن تلك وسيلة إلى الانتصار فى كل معركة خضتها .

يحدثنى البعض من الذين راقبوا فىّ هذا الوضع النفسى فيزعمون أن ذلك برود أو ضعف أو لا مبالاة . ولكنى ما أزال أزعم لنفسى أن ذلك قوة ، ودلتنى التجربة على أنها قوة ساعدتنى على التغلب على كثير من المصاعب .

لهذا كنت وسط الفرسان الأربعة فى سيارة ضيقة مقفلة وكأنى ما خرجت من منزلى . ولا كأنى أساق إلى مصير مجهول .

ما موقفى من هؤلاء الأربعة وقد ضمنى معهم مكان ما كنت أحلم قط أن سيجمعنى مع مثلهم ؟ كنت غريباً عنهم بمقدار ما كانوا غرباء

عن بعضهم . كل منهم له أهداف ومطامح ومثل ، وما يضير الصدفة أن تجمع فى نفس الطريق معهم شخصًا آخر يختلف عن جميعهم فى الأهداف والمطامح والمثل .

إنهم رفقاء طريق وقد انتهى هذا الطريق حينما وقفت السيارة بباب مركز الشرطة وطرقت سمعى صرخة الرئيس بلهجة آمرة فى قليل من أدب : انزل . . .

٤

فى الخطوات التى قطعتها من باب السيارة إلى باب مركز الشرطة كنت أقطع آخر خيط بينى وبين الحرية . فقد كنت حتى هذه الساعة ما أزال أعيش – أو هكذا كان يخيل إلى – بين الذين يتحركون بحرية : يتحدث حولى الناس ويسيرون أو يقفون دون أن تصدر إليهم أوامر بهذا العمل أو ذلك . والإنسان بين الأحرار قد يحسب نفسه حرًّا ، ولو كان حسبان مغالطة أو تجسيداً لأمل أو رجاء .

وفى هذه الخطوات أحسست بأن الحلقة تضيق حولى فقد انضاف إلى الفرسان الأربعة رجال آخرون مسلحون بملابس الشرطة الرسمية وآخرون بملابسهم العادية ، وكأنّهم كانوا معنا على موعد سابق ، فبحركة خفيفة لا شعورية تحلقوا جميعاً حولى وكأنهم مدعوون إلى القيام بمهمتهم فى حراسة شخص خطير مخافة أن يفلت .

رفعت ناظرى إلى هؤلاء وأولئك فما وجدت سير وجوه كالحة يطفح بعضها بالحقد ، ويراود بعضها الإشفاق . وسرت فى هدوء وسط الكتيبة كما يسير أسير حرب وقع فى كمين .

وقفت الكتيبة فوقفت تلقائيًّا ، إلا الرئيس الذى طرق باباً ثم دخل دون أن ينتظر إذناً ولم يلبث غير قليل حتى خرج من مكتب عميد الشرطة

يحمل تعليمات تحدد خط السير نحو مصيرى .

وأُدْخِلت غرفة ثم أخرى ، وإذا بى أفجأ بصديقين لم أكن أعرف مصيرهما منذ تأزمت الأوضاع . وكان يبدو على أحدهما بعض القلق ، ولكن الآخر كان فى شبه اطمئنان أو استسلام . كدت أتكلم ، وكادا.. فما زدت على ابتسامة تحية فرد المطمئن بابتسامة ، وكاد القلق أن يبتسم .

وأُمِرت — وقد بدأت الأوامر تصدر إلى — أن أنتحى ركناً بعيداً عن الصديقين ، على كرسى شبه أعرج . وفى الغرفة طاولة عريضة بدأ يتحلق حولها مفتشو الشرطة ، فقد بدأ وقت العمل ، وعمل هؤلاء المفتشين هو الانتظار وتنفيذ التعليمات وكلهم كان بملابس مدنية ، أخذ بعضهم أوراقاً وملفات يعمل فيها ويتحدث لزملائه . وشغل بعضهم نفسه بسجائر يلف تبغها ويجتذب أنفاسها وبدأت كؤوس الشاى والقهوة تحتل مراكزها من الطاولة العريضة . وبدأ الحديث يحتد ، والأصوات ترتفع ، والنكات تتبادل والضحكات ترن فى جو الغرفة المخنوق ، وجوّ غشت يكتم أنفاسها .

وكان لا بد لهذا الفراغ — الذى يمثله ثلة كبيرة من مفتشى الشرطة — أن يجد متنفساً . فانفتحت الأدراج ، وانطلقت ألعاب الورق والحظ تملأ فراغ مفتشى الشرطة المحترمين . . . وكان منظراً لطيفاً أن تحولت غرفة التفتيش فى المركز الرئيسى للشرطة إلى . . كازينو قمار ، تملأ جوه أنحة الربح والخسارة . وكان منظراً لطيفاً أن تجد المفتش العاتى يذل —

وهو فى مركز عمله ــ أمام الخسارة تطيح بما يملك فى جيبه .

وتذكرت ساعتئذ أن ميزانية الشرطة كانت أعظم من ميزانية التعليم . وعرفت معرفة يقين أية مهمة يؤديها رجال الشرطة الفرنسيون فى المغرب .

وانتهزنا ــ نحن الأسراء الثلاثة ــ فرصة انشغال حضرات المفتشين الذين وضعنا فى حراستهم المسلحة ، وتبادلنا بضع كلمات . . ؟ أين فلان ؟

وانطلقت حنجرة مبحوحة من مفتش محروق الوجه مشوه الخلقة ذى نظارات سوداء تعكس على وجهه ظلمة نفسه ، انطلقت فى حقد حاقد :

ــ اسكتوا . . . فلسنا هنا فى مقهى . .!! ومن أباح لكم الكلام ؟ ابعد أنت عن هذا وابعد أنت عن ذاك . .

كان يلفظ أوامره من خلف نظاراته فيتطاير شعاع الغضب من عينين حاقدتين ، وكان قد تخفف من سترته اتقاء للفح غشت فبدا وهو محترف بمسدسه كما يبدو أطفال رعاة البقر « الكاوبويز » فى أفلام « التكساس »

وامتثلنا فليس بوسعنا أن نعاند مفتشاً تمنطق بمسدس . . .

وفى جو القمار الصاخب نودى علينا نحن الثلاثة واحداً بعد الآخر ودخلت بدورى على شرطى بملابس مدنية

ــ اسمك . . ؟ اسم أمك ؟ اسم أبيك . . ؟ محل ولادتك . . ؟

ــ فاس .

ــ آه أنت من فاس .

وبرقت عينا الرجل . وما استطعت أن أفسر المعانى التى تداعت فى نفسه وهو يسمع كلمة فاس ويردد الكلمة فى حنق وغيظ . قد يكون ، فلمدينة فاس فى قلوب هؤلاء المحتلين ذكريات سيئة ، ولأهل فاس فى نفوسهم مكان غير مكان المدن الأخرى . . ولكن الرجل — رغم كبره — كان ذا وجه بشر وعينين ضاحكتين وحديث مؤنس . فلم يلبث الشك الذى راود نفسى أن انقشع ، فقد انطلق بلغة عربية فاسية :

— فاس بلدى فأنا فاسى ، قضيت فيها عمراً من عمرى منذ جئت شاباً من فرنسا فى أعقاب الحرب الأولى .. مدينة جميلة بهوائها وأهلها . ولى فيها أصدقاء . ولو استطعت أن أنتقل إلى العمل هناك لفضلته على كل مكان فى المغرب .

وقلت فى نفسى ستنقل إلى فرنسا فهى أجدر بجهودك وخدماتك .

ونسى الرجل العمل الرسمى الذى يقوم به وانطلق يحدثنى عن فاس وذكريات من فاس . ولست أنسى أنى أنست بحديثه حتى نسيت أنى أمام شرطى يحقق فى شخصيتى ، فقد كان يبدو صادقاً فيما يتحدث عنه والصدق يشفع للأعداء والأصدقاء على السواء . وأنهى حديثه بشبه اعتذار هو لا يريد أن يضايقنى لأنه يقوم بعمل إدارى صرف . وإذا كانت أسئلته تضايق فهو لا يقوم إلا بدور الوسيط بينى وبين الورقة التى طلب إليه أن يملأ فراغها .

وانتهت مهمته فودعنى وهو يقول : حظ سعيد .

٥

ولم يكن حظًّا سعيداً هذا الذى تمنى لى موظف الشرطة المسجل .

فقد فارقته لألتقى بالمغربى ذى الوجه المجذور وهو يطلب إلى أن أتبعه ، ودخلت وراءه غرفة صغيرة تكاد الأنفاس لا تجد منفذاً من نافذتها الضيقة .

تركنى وهو يأمر اجلس هنا

بقيت وحيداً أفكر فى الثقة التى وضعها فى مفتش الشرطة ، ألم يخطر بباله قط أنى قد أفر من قبضته ؟ وأفكر فى المصير الذى يبيته لنا هؤلاء : ما مدى الألم الذى ينتظرنا على أيديهم ؟ وأفكر فى التحقيق الذى سيقومون به ، وفى ذهنى أصداء من تحقيقات الشرطة فى الدار البيضاء قبل بضعة أشهر مضت . . .

وقطع تفكيرى صوت مزلاج الباب وهو ينفتح بعنف عن جسم ضخم قوى لا يقارب ضخامة طوله إلا أكتافه العريضة وبطنه المنتفخ وأوداجه الملتهبة ، وعلائم الجد والصرامة تطفح من عينيه المختفيتين وراء نظارة سميكة ، وكأن شرارات الغضب تتطاير من محجريهما يسير فى اتزان وهو يحسب لمواقع أقدامه حسابها ، ويشمخ بأنفه وكأنه يسير بين جنود شاكين سلاحهم تحية للبطل الفاتح . . . تمنطق بمسدسه وفى هذا المسدس

تكمن قوة هؤلاء الرجال الذين يحمون الأمن بقوة الحديد والنار .

ألقى على نظرة عجلى من خلف نظارتيه السميكتين ، فلم أعر نظرته انتباهاً وسار بخطواته المتزنة حتى نافذة الغرفة ثم عاد أدراجه وهو يحسب أنه أدى مهمة بوليسية .

وعرفت فيما بعد أنه عميد شرطة الرباط .

لم ألبث غير قليل حتى انفتح الباب مرة أخرى فى عنف . وكان الزائر رجلا فى حدود الخامسة والثلاثين طلق المحيا فى وجهه بشر وفى ملامحه علائم جمال ، وتقدم إلى يتبعه المغربى المجدور الوجه — وهو يحمل ملفاً فارغاً إلا من أوراق التعريف .

وبدأ البحث

ما هو نشاطك الوطنى ؟ ما مهمتك فى الحزب ؟ ما صلتك بفلان ؟ لماذا حاولت أن تجدد نشاط الحزب رغم المنع ؟

وحاولت أن أدرس نفسية الرجل من خلال أسئلته ، فجذبته إلى موضوعات غير ذات أهمية وبدأت أدلى فيها باعترافات حسبها خطيرة فركز عليها أسئلته . وأبدى نشاطاً فى تسجيل الأجوبة وكانت علامات السرور تبدو على محياه وهو يسجل الاعترافات . ودلتنى هذه التجربة على أن الرجل من نوع المحققين فى الجرائم العادية ومن الطبيعى أن يكون بسيطاً فيما يتصل بالمسائل السياسية ، لهذا غرق فى الماضى ونسى الحاضر ومرت ساعتان لم يجد فيهما صعوبة فى التحقيق ولم أجد

صعوبة فى الاستنطاق .

واستأنف التحقيق بعد فترة استجمام ، وإذا به يدخل كالأسد الهصور ؛ تغيرت معالم وجهه واحتقنت عيناه ونظر إلى فى خبث وهو يقول : إنك تغالطنى . . . أسألك بالفرنسية فترد بالعربية وما أريد منك أن تتجنب الإجابة باصطناعك الجهل بالفرنسية ، وتنكر ما صنعت ولا تدرى بأن فلاناً صديقك هو بين أيدينا وقد بات فى زنزانة الشرطة ، وأقر بكل شىء . ثم هذا تقرير من مكناس يعترف فيه أصدقاؤك بكل ما صنعتم جميعاً .

ونظرت إليه فى اطمئنان ، فليس أدعى لارتياح هؤلاء من أن تفقد أعصابك ، هم لا يبحثون عن حقيقة ما ، ولكنهم يؤدون مهمة ويرجون أن يرضوا رؤساءهم أكثر مما يرغبون فى الوصول إلى الحقيقة .

وأمام الاطمئنان والهدوء النفسى اندفع فى عصبية يجرد مسدسه وهو يحاول أن يخفى مظاهر التهديد وضرب به على المكتب الذى يفصل بيننا وهو يقول : من الأفضل لك ألا تدعنى أستعمل القوة . إن تقرير مكناس يقول إنك من المسئولين عن تجديد نشاط الحزب وأنت تنكر . أصدقاؤك جميعاً أقروا ، وأنت تنكر ، ولعله من الخير أن أستخدم معك نفس الأسلوب .

وقام المغربى ذو الوجه المجدور يلقى أمامى درساً عمليًّا ، فقد جىء بشبان من عملة إصلاح الطرق ، واتهموا بأنهم أحدثوا عطباً فى السكة

الحديدية كاد يودى بقطار وكان الدرس الذى لقنني إياه أن صفعهم جميعاً صفعات قوية عنيفة وحشية أطاحت بهم جميعاً ثم انطلق كالسيل يهدر بسباب فاحش ، وعاد إلى يقول : سيعترفون . . وهذه هى البداية...

ثم جلس أمامى بعد أن استعاد هدوءه : من الأحسن لك أن تعترف، فهؤلاء لن يتورعوا عن إيذائك ، وأنت الآن بين أيديهم ، فقل كل شيء ، لنستطيع حمايتك.

وما كانت نصيحته العملية والكلامية لتودى بالثقة التى وضعتها فى نفسى ، واستخدمت المنطق لإقناع صاحبنا بأنه ليس لدى ما أقول غير الذى سمع ، ويخيل إلى أنى أقنعته ، فقد عاد يقول ان آخرين قد يحققون معك ، ولن ينفعك معهم هذا الذى تقول . والآن لقد انتهت مهمتى ، فإلى الكهف . . .

٦

كان الوقت يقارب الغروب عندما أمر بى أن أنزل إلى الكهف ، وقد تصارعت فى ذهنى مشاعر مختلفة ، فالنزول إلى الكهف معناه التخلص من هذا الاستنطاق الثقيل الذى ظل سحابة النهار بتمامه يدور حول نقطة واحدة تهدف إلى محاولة إثبات الجريمة ضدى جريمة تكوين الحزب وإدارته من جديد ، بعد أن صدرت المراسيم بمنعه ومصادرة نشاطه . والنزول إلى الكهف معناه أيضاً أن استنطاقاً آخر من نوع جديد قد يبدأ عمله ، وقد سمعت عن هذا الاستنطاق الكثير مما عاناه زملائى وإخوانى فى الدار البيضاء ومكناس والرباط وفى كل مكان أعتقل فيه استقلالى . والنزول إلى الكهف معناه قضاء الليل تحت الأرض فى مكان رطب قذر لا هواء فيه ولا نور ولا وطاء ولا غطاء . وذلك ثمن بسيط قد يؤديه المعتقل عن طيب خاطر إذا هو تخلص من استنطاق سمج ثقيل الظل فيه من التهديد والوعيد ما يفقد معه أيوب صبره ، وما يتلف أعصاب أقوى الناس احتمالا وأكثرهم سماحة نفس .

وفى تيار هذه المشاعر المختلطة وقفت أمام حارس الكهف ليجردنى من المال والساعة والحزام والقلم والورق وأربطة الحذاء .

ودخلت الباب الضيق ، باب الكهف ، فوجدت شابين ، أو ثلاثة ، وجوههم مصفرة ، وعيونهم مرعوبة جالسين فى ابتئاس ، وما

كاد الباب يفتح حتى تطلعوا جميعاً فى فضول ، فصرير المفتاح شىء له مكان فى نفس السجين ، إنه لا يعنى بالنسبة لهؤلاء أن سجيناً جديداً سيحل ضيفاً عليهم فحسب ، ولكنه قد يعنى أن الباب سيفتح فى وجوههم ليتخلصوا من عالم السدود والقيود . وقد يعنى أن أحدهم سيطلب لغرفة التعذيب ، فحاسة التوقع قوية فى نفس كل سجين .

ولكن الباب انفتح أمامهم على وجه جديد . وما كنت أدرى ، وما كانوا يدرون ، بماذا يستقبل أحدنا الآخر هل أحييهم ؟ وما أعرف هل تسمح قوانين الكهف بالتحية ؟ هل يرحبون بى وهم فى منزل لا يحمل فيه الترحيب ؟ ولكنى اكتفيت بأن أتطلع إلى وجوههم المذعورة ، وانتقلت عيونهم ، والباب يقفل من خلفى فى عنف ، إلى وجهى ، فالتقت عيوننا تتبادل عواطف الإشفاق والرحمة .

تخيرت مكانى إلى جوار الحائط وفى ركن تزاحمت حوله القذارة والأتربة وقد ابتل بما لا أدرى أهو ماء أو شىء آخر غير الماء . . . والماء لم يكن له وجود فى الكهف المعتم . وكان للحرارة القوية أثرها فتصاعدت من أرضية الكهف أبخرة نتنة لم تستطع أجنحة الذباب على كثرته أن تطردها عن أنوفنا . وفى ركن منزو من الكهف ثقب ووري بسور لا يعدو فى طوله ركبة رجل هو كنيف رواد الكهف الملعون . . .

تربعت وقد بدأت المشاعر المختلفة تتضح أمام ناظرى ، فالثمن الذى أدفعه للتخلص من الاستنطاق القاسى ليس ثمناً هيناً ، ولكنه —

فيما يبدو من اللحظات الأولى — ثمن غال هو قضاء ليلة أو ليالٍ فى هذا الكهف القذر .

ولم يستقر بى المقام حتى أرخى الظلام سدوله ، ولم يعد هناك من ضياء إلا ما يتلصص من ثقب مفتاح الباب أو من شباك صغير ملتصق بالسقف هو كل مورد الكهف من ضياء وهواء .

اطمأن الزملاء إلى أن مفتشى الشرطة قد غادروا المركز ، ولم يعد هناك إلا الحراس فقطع أحدهم أدعيته وتوسلاته والتفت إلى يسألنى أو هو يريد أن يطلعنى على وضعيته :

اعتقل فى إحدى المظاهرات ولم يبت فى أمره فلم يحاكم ولم يفرج عنه ، وهو يقضى ليلته الثامنة فى الكهف الملعون ألف حياة الكهف ، ولكنه لم يألف مطلقاً هذا الوعيد الذى يتهدده به مفتش الشرطة كلما حلا له أن يحطم أعصابه ، فهو من حين لآخر يفتح الباب ليسر إليه أنه سيحكم عليه بالإعدام لأن تهمته بقيادة المظاهرات خطيرة ويكاد الرجل أن يصدق ، وإلا فما معنى أن يترك فى الكهف ثمانية أيام وقد مر منه عشرات المواطنين سيقوا إلى السجون أو أفرج عنهم . ويعود إلى جلده وهو يتشبث بالأمل :

— أعرف أنه يريد أن يحطم معنوياتى . . .

ويسألنى فى وله :

— هل يمكن أن يكون تهديده صحيحاً ؟

وأخرج من صمتى لأقوى مجال الأمل فى نفس الشاب

ــ لا تصدق ، فالأحكام ليست بيد مفتش الشرطة ، وإلا لحكموا على جميع الوطنيين بالإعدام . . . ثق فى نفسك وتسلح بالشجاعة ، وتقبل أى حكم بالصبر . فأنت شاب ودور شبابك يجب أن يبرز الآن ..

وفعلت كلمات التشجيع فى نفس صاحبنا فعلها . وعاد يسألنى عن تهمتى ، وكنت منهك القوى ، مللت من الاستنطاق فما أستطيع أن أدخل فى سؤال وجواب ، فأجبت فى اختصار .

ــ نفس تهمتك وقد يكون لى نفس عقابك .

وشعرت بأن الشاب استأنس : فها هو ذا رفيق قد يلقى نفس مصيرى فلم الابتئاس ؟ ولم الألم والحزن ؟

وأظلم الكهف ، والظلام عدو السَّجين إنه يأنس بالنور لأن النور من مستلزمات الحياة . والنور ضياء لا يستخرج قدرة الإبصار من العين فحسب ، ولكنه يسطع فى النفس فيحيل ظلمتها إلى بهاء . وحول السجين تلتف كل عوامل الإظلام ، فإذا أرخى الليل سدوله أغلق المتنفس الوحيد الذى قد يحيل ظلمة النفس إلى بهاء ورواء .

وفى الظلام انبعث صوت صاحبنا قويًّا جهيراً ينادى :

ــ على . . . على أما زلت هناك . . ؟ هل جد جديد فى قضيتك . . ؟

وتردد صوت آخر من بعيد يخترق خصاص الشباك الضيق

ـ لا جديد غير أن عبد الرحمن قد خرج ، وضيوف اليوم هم فلان وفلان وفلان

ـ أما ضيفى أنا فهو فلان . والتفت يتأكد من اسمى .

ـ لقد أخبرنى الملعون بأننا سيحكم علينا بالإعدام

ـ لا تصدق . . فقد هددنى بمثل ما هددك .

وانطلق صوت أجش من الباب يقطع الحوار هو صوت الحارس :

ـ اسكت وإلا كسرت جمجمتك . . .

سكت الرجل قليلا ثم التفت إلى فى همس :

ـ كنت أتحدث مع أخى فقد اعتقلنا معاً وتركنا والدنا الشيخ وأمنا العجوز ، ولكنهما صابران فهما وطنيان ولو كانا شابين لكان هذا مكانهما

٧

وبدأ المساء يأخذ طريقه نحو قلب الليل المدلهم ، وبدأ السكون يخيم على مسكنى الجديد ، على الكهف الذى أقضى فيه ليلتى الأولى ، ومع الليل ينشط الفكر ليجول جولات سريعة متنقلا بين الحدود الضيقة ، التى رسمها مفتش الشرطة ، لأقضى فيها ليلتى لا أتعداها ، وبين العالم الرحب الواسع الآفاق .

ومن حسن الحظ أن الأبواب لا تقفل على عالم الفكر ، فما أحد بمستطيع أن يمنع فكرى من أن يتجول فى عالمه الرحب وإن مُنع جسمى من أن ينطلق خلف الباب الضيق المحروس .

ويجول الفكر جولاته ثم يعود إلى الواقع المر ، فللآلام جاذبيتها ، ولو حاول الجسم أن ينطلق من عقالها فستشده إليها بأمراس شديدة المراس.

أحاول أن أجد مكانى على الأرض الصلبة فما أستطيع . وأتخفف من سترتى علها تقينى بعض قساوة الأرض فما تفيد ، وأحاول أن أجعل من حذائى وسادة فتضيق أعطانه عن أن تستجيب لما يبتغيه رأسى من نعومة أو رفاهة ، وأسلم أمرى إلى الله ، فما تفيد الحيل فى أن تجعل من كهف مركز الشرطة مكاناً مريحاً للنوم .

وفجأة يتبدد سكون الكهف ويعلو صرير المفاتيح ، بعد أن مهدت

له ضربات قوية من أحذية ثقيلة تخطو خطوات عنيفة ، وينفتح الباب على وجوه بئيسة تحملها أجسام ذاوية نحيلة تتدثر بأسمال بالية ممزقة ، إنهم شباب لا تحملهم أرجلهم وإنما ينجرون ، وأيد قاسية تدفعهم من وراء إلى الكهف المظلم .

وتطلعنا جميعاً إلى الوجوه المتألمة . وتناقلت نظراتنا بين أوجههم وأرجلهم ، فالآلام التى تبرح أجسامهم كانت تنطق بها وجوههم المظلمة ، وعيونهم الباكية ، ولسانهم يهتف فى همس : الله . . . الله . . .

نقلوا من غرفة التعذيب حيث كان الاستنطاق يستخرج منهم الاعترافات بالعنف الذى ألفته الشرطة الفرنسية. واقترب أحدهم منّى ، وفى بصيص النور الذى يتلصص من خصاص الشباك العالى تعرفت على الوجه الذى كان لى معه لقاء حينما أهوى الشرطى المجدور على خده بلطماته القوية ، صباح ذلك اليوم .

إنهم جماعة الشبان الذين اتهموا بمحاولة تخريب السكة الحديدية .

ووجدتنى أسأله فى إشفاق وهو يتلوى من الألم :

— . . . وماذا أصابكم منذ رأيتكم فى الصباح ؟

وانطلقت كلماته متقطعة ضعيفة لا تكاد تسمع تتخللها كلمات الاستنجاد : الله . . . الله . . .

— منذ الصباح ونحن فى استنطاق لا يرحم ، هددونا وضربونا . . . وشتموا آباءنا ، وأجدادنا يريدون أن نعترف بأننا خربنا سكة

الحديد . . . أصررنا على الإنكار فنقلونا إلى مركز التعذيب مزقوا أجسامنا بسياطهم . . . لن تعود رجلاى كما كانت ، فقد مزقت إرباً

وما وجدت ما أعزى به الرجل إلا أن أوصيه بالصبر والثبات .

— ولكن قل لى : هل سيعيدوننا إلى غرفة التعذيب ؟

— أرجو ألا تعودوا ، وإذا عدتم فأنتم رجال ويجب أن تعتصموا برجولتكم .

وصرفه الألم عنّى وعن وصيتى ، وعاد بى الفكر إلى المصير الذى يلقاه شباب هذه الأمة ، ففى تلك اللحظات التى يسدل فيها الليل ستاره تنطلق زبانية الشرطة فى مراكز التعذيب بجميع أنحاء المغرب ليمزقوا أجسام الشباب بسياطهم ، وليتلفوا أعصابهم بالتيار الكهربى ، وليغمسوا رؤوسهم فى المياه القذرة ، وليرتكبوا معهم آثاماً يندى لها جبين الإنسانية .

فهل سنلقى مثل هذا المصير ؟

سؤال ألح على ذهنى وأنا أنظر إلى الشباب الثلاثة ترتجف أجسامهم من شدة الألم .

ومرة أخرى يعود الهدوء ، ففى الكهف قوم يحلو لهم أن يعيشوا مع أفكارهم وأن يخلدوا إلى تأملاتهم ، وأن يتسمعوا إلى نبضات الألم تنضح بها نفوسهم وقلوبهم وأجسامهم ، وهم يتحدثون ، ولكنهم مع ظلام الليل يأنسون بالوحدة ولعلهم يجدون نعمة فى هدوء يختلون فيه بنفوسهم وأفكارهم وآلامهم .

ووضعت رأسى على وسادتى فى كهف الشرطة لا يتذمر السجين أن يضع رأسه مكان قدمه . ولكن الحذاء الملعون لم يستجب لهذه البادرة، فقد تنطع أن يخضع لغير ما ألف فتركته جانباً لأجرب ذراعى .

وكنت قد احتفظت بلقمة خبز لففتها فى ورقة ووضعتها بإزائى فهى زاد قد تقى نقمة الجوع إن كان للجوع مكان فى شعور نزيل الكهف، وأحسست بالورقة ترتعش وظننت أنى لمستها ولكنها ارتعشت فى عنف ، فأحسست برهبة تلف عضلاتى، وتلفت فما استطعت أن أبصر أو أرى ... وأرهفت السمع فإذا بقضمة قوية تلتقط لقمة الخبز ، وإذا به يجرى سريعاً متوارياً عن الانظار التى لا تراه ، وإن كانت الآذان تسمع قفزاته الخفيفة .

انتزعت هذه الحركة الابتسام من شفتى ، فنحن نزلاء الكهف يجب أن يخدم بعضنا بعضاً، وما يصح مطلقاً ألا نكرم هذا الفأر اللطيف، وقد دخلنا من عالم النور إلى عالمه ، نحن ضيوفه فى المنزل ، فيجب أن يكون ضيفنا فى المطعم !

ولكنى رجوت الضيف المضيف — فى سرى طبعاً — ألا يعود ، فليس لدى ما أكرمه به غير لقمة خبز آثرته بها مكرهاً .

٨

وكان الضيف المضيف قنوعاً فلم يعد أو لعله كان من الحذق والمعرفة بحيث يعرف أن كل زاد السجين كسرة خبز جافة ، فهو لا يطمع فى غيرها ومن ثم لا يغود لأنه ليست به حاجة إلى العودة .

واطمأننت إلى أنى سأنعم بفترة هدوء بعد أن راودت جسدى على قبول الأرض وطاء والسقف غطاء . وبعد أن أبى الرأس منى أن يكون مكان القدم فامتنع عن أن يتخذ من الحذاء وسادة .

وغفوت إغفاءة قصيرة انتزعتها من أحضان جسم متعب وعقل شارد والنوم لا يستجيب إلا قسراً عند الذين يشغلون أنفسهم بغير النوم ، ولم يكن هناك مجال للأحلام فى نومى اليقظ فما كنت لأغفو حتى توقظنى قساوة الأرض أو عنف الرائحة التى تتصاعد منها ومن الثقب المتوارى خلف جدار قه .. .

ومع ذلك حاولت أن أغفو فأمامى يوم حافل فيما يظهر بالجدل مع المحققين .

وفيما أنا أحاول ضجت الجدران من بعيد بأصداء صياح هائل ، منبعث من حنجرة شابة أيقظ سكان الكهف جميعهم ، فأعصاب الزملاء ذات إحساس مرهف ، وما كانت لتستجيب لنوم عميق فى

كهف المفاجآت . . . وتطلعت عيوننا جميعاً إلى الباب ، فلم نشك قط فى أنها أصداء نزيل جديد قذفت به الطريق أو قذفت به غرفة العمليات (عمليات التعذيب) .

وأرهفت السمع علّى أتبين من خلال الصياح منبع الضجة ولكن الصيحات اختلطت بصيحات أخرى خشنة الملمس جافة الوقع هى صيحات الحراس ، ومن خلال الأصوات المتضاربة كانت تنبعث ضربات عنيفة قوية تصطدم بجسم قوى صلب

وانفتح الباب عن معركة حامية بين فتى — بدأ يخطو خطواته الثابتة نحو الشباب — وبين مجموعة من الحراس يحاولون أن يقذفوا به فى عنف وأن يكتموا أنفاس صيحاته . وهو يحاول أن يتخلص منهم ويقاوم ضرباتهم وعنفهم ، وانطلقت مع الشاب المندفع صيحات يحيا محمد الخامس سيعود محمد الخامس . . نحن الذين سنعيد محمد الخامس . . . تسقط فرنسا . . يسقط كيوم .

ووقف وسط الكهف وقد أبانت أضواء الباب المنفتح عن جسمه الفارع ، وشبابه الغض وعضلاته القوية ،وشدهنا . . . لقد كان عارياً إلا من سراويل ممزقة ، ووقف وسطنا وكأنه يخطب : يريدون إبعاد محمد الخامس ؟ سنخرجهم من ديارنا ، ولو امتدت إليه أيديهم فسنعيده بفضل جهودنا . . . أنا وطنى . . . افتحوا الباب أيها الأنذال . . إنكم جبناء تدفعون بنا إلى السجون بالقوة ثم تزعمون أنكم انتصرتم علينا .

وظل الشاب يهدر ، وظلت الجدران الضيقة تردد أصداء عنيفة من هديره كان مخموراً ، ولكن عقله الباطن كان يتحدث كان يعبر عن الكلمة . . الكلمة التى انطلق بها فم الشعب فى الشارع والمنزل والحقل والمعمل و . . . المعتقل، وما تجرأ أحد منا أن يتحدث إليه فقد كان هائجاً كالجريح ، وما أعتقد أنه لجأ إلى الخمر إلا ليدفن فيها جراحات قلبه من ذل ما أصاب وطنه ، ولكن الجراحات تفجرت دماً عبرت عنها صيحاته المدوية .

وأعترف بأن الدموع تفجرت من مآقى وأنا أتابع صيحاته وحركاته الخطابية ، وظللت ألحظه حتى هدأت نفسه قليلا ثم انزوى بالقرب منى وتوسد ذراعه ونام وهو يحلم بالجبناء الذين اعتقلوه لأنه يحب محمد الخامس .

٩

كانت أحلامه اليقظة تبعث فى جسمى القشعريرة... كان يتكلم وهو نائم بصوت يثير الأسى . . . إن صورة محمد الخامس تملأ عليه دنيا أحلامه كما ملأت دنيا يقظته . هؤلاء الأنذال الذين أبعدوا حبيب الأمة سنطيح برؤوسهم ، وهؤلاء الأوغاد الذين رموا بى فى سجن « الكوميسارية » سيرون عندما يصبح صباحهم . . وتضيع عباراته الملتهبة بين سكرات نوم تجتذبها حتى تصبح واهنة ضعيفة لا تبين ، وتعود أنفاسه تعلو فى شخير متقطع وهو يزأر فى وجهى فقد أصبحنا من الكثرة بحيث لا أستطيع الابتعاد عنه .

وبدأت أراود النوم من جديد ولكنه يستعصى هذه المرة أكثر من ذى قبل ، فقد استجاب لرجائى عدة مرات ، ولكنه — فيما يظهر — أصبح عصبى المزاج لم يستجب لطبيعة الوضع الذى أوجد فيه ، ولهذا ظللت أتابع شخير الزميل الذى يقاسمنى « سريرى » فى انتظام متقطع... وقطعت هذا الانتظام أصداء من بعيد : أصوات مختلطة تقترب ، فيها احتجاج ورجاء وفيها سباب فاحش .

جلست فى مكانى أتطلع لاتجاه الباب فى فضول . فقد ألفت أن يكون معنى هذه الأصداء ضيف جديد سيحل بالمأوى . وإذا كان

عنف الكلام قد تحول إلى عنف العمل اليدوى لكمات ودفعات ، فإن صرير المفاتيح الثقيلة لم يلبث أن دوى فى مزلاج الباب ، وملأ الكهفَ ضوء ساطع من الخارج ، ثم اندفع شاب آخر قوى البنية مفتول العضلات طويل القامة ، اندفع مترنحاً فقد رمت به من خلف الباب قوة أربعة من شرطة الليل — وتلقفه الجدار الشرقى للكهف ، وعاد إلى الباب مسرعاً وكأنه كرة مطاط أعادتها الصدمة إلى مكان انطلاقها ولكن الباب كان أسرع من قوة انطلاقه فقد أغلق ، وأصبح جداراً اصطدمت به كل مشاعره .

ولعل هذه الصدمة أفاقت الشاب من سكرته أنه بين أربعة جدران ، تلفت يميناً ويساراً فلم يجد غير أشباح ملقاة على الأرض ، لم يسعفه النور أن يتبين منها غير الأشباح ، بحث عن النوافذ فلم يجد ، وبحث عن مفاتيح النور فلم يجد ، وفى سرعة البرق فكر فى السرير والوسادة والغطاء . . . وظن أنها قادمة لا محالة . . . حاول أن يتخفف من سترته فلم يجد مشجباً ، أين هواء الليل المنعش ؟ إن رأسه يدور أكثر مما كان لأنه لا يجد متنفساً . . . جف حلقه . . جرعة ماء . . أين جرعة الماء . . . ؟ بحث عنها فلم يجد هؤلاء المجانين الذين رموا به فى الكهف . . ألا يعرفون من هو ؟ فى الكهف ؟ ماذا ؟ سجن ؟ سجن ؟ مستحيل . . مستحيل . . .

كان يفكر بالجهر ، واختلط عقله الواعى بعقله اللاواعى . يكاد

يختنق ، حنجرته تهتف بصوت جهورى افتحوا الباب أيها الأوغاد . . . شعر بذلة أنه فى سجن الشرطة ، وانطلق يعوى ألا تعرفون من أنا . . أنا أخو القائد . . سيارتى هناك تركتها معرضة للسرقة . . . أنا أملك سيارة . . وأسكن فى قصر . . وأخو قائد ... ثم تجرؤون على اعتقالى . . افتحوا الباب وإلا شكوتكم لأخى . . ستلقون مصيركم أيها الأنذال .

كان صوته يتردد ولكن بين الجدران الأربعة ، وشعر باحتجاج النائمين وهمهمات اليقظين ، ولكنه كان يدرك أنه أخو قائد ، وهذه الحشرات التى حشر معها لا أهمية لاحتجاجاتها واندفع إلى الباب يخبطه بكفيه :

افتحوا . . . افتحوا ، وإلا ندمتم على ما صنعتم . . . ! !

وانطلق صوت أحد النزلاء : اسكت . . اسكت أيها الأحمق فلن يفتح لك أحد .

لم يعر الاحتجاج التفاتاً ، وانطلق إلى الباب يخبطه وكأنه يحاول أن يكسره — برجليه ، وانتبه الزميل الذى يشاطرنى سريرى ، ورفع عقيرته بالشكوى من هذا المجنون الذى لا يدرى أنه فى كهف الشرطة : اسكت . . اسكت . . وإلا كسرت جمجمتك .

فكرت طويلا فى هذه المعركة . معركة مخمورين تكاد تندلع فى الكهف الضيق ، ولم يأبه الضيف الجديد ؛ لتحذير النزيل القديم فهو أخو قائد . . وانفتحت كوة من عقله الواعى لتشعره بالمذلة وانفجر صوته

الباكى ينادى وا أماه . . . وأخذ ينوح كامرأة ضاع عزيزها .

نفد صبر جارى فرفع رأسه عن وسادته « ذراعه » وأصدر الأمر اسكت... اسكت... ثم انطلق بكل شبابه وقوته وأمسك بأخ القائدالمحترم ولم نكن نرى ولكنا كنا نسمع ضربات ولكمات ، ثم استغاثة ، احمونى أبعدوه عنى ، لقد كسر رأسى . . . وبضربة قاضية طرحه أرضاً وهو يقذف كل ما فى جوفه . . .

وعاد جارى إلى مكانه وراح فى سبات عميق ، لم يلبث أن علا شخيره

أما أنا فقد ظللت أعد الدقائق والساعات فى انتظار صباح ينقذنى من جاريّ العزيزين ومن رائحة نتنة كادت تخنق أنفاسى .

١٠

ومع انبلاج الفجر – وأذكر أننا كنا فى غشت – تلصصت أضواء باهتة من النافذة الوحيدة المغلقة المحاطة بالأسلاك وقضبان الحديد ، فأطارت النوم من عيون آلاف الذباب الذى كان يخيم فى الكهف ، والذى أنعشت شهوة معدته حموضة وتعفن ضاعف حدتهما ما قاءه السيد أخو القائد . . وتجاوب طنين الذباب مع شخير النائمين ، وكان فى انقضاضه وطيرانه يبدو وكأنه يحتفل بعيد ، خفة ، ونشاط وأذاة لاسعة لضحايا قفزاته .

أطار الذباب إغفاءة النوم من عينى ، وما أسفت على نوم لا نعاس فيه ولا راحة ، بل إنى ابتهجت لاستقبال صباح لا أدرى ما يخبئه لى القدر فيه ، ولكن زملائى فى الكهف كانوا فى صراع لا شعورى مع الذباب الذى كان ينقض على وجوههم كما تنفض « قاذفات اللهب » على أهدافها المفتوحة ، وكان يعابثهم معابثة اليقظان للنائم ، فهو يدرك – مدارك الذباب – أن مقاومتهم لا تعدو لحظة اللسع ، وهو يدرك أن خفة أيديهم لا توازى خفة جناحيه ، ولذلك ظل يعابثهم معابثة الأطفال : ينقض ، ثم يطير ليضحك بملء فيه – ضحك الذباب – على أيديهم وهى تنش الفراغ فى عماء ودون وعى . ومع ذلك ظلوا فى شخيرهم وكأنهم

ينامون على فرش منضودة لا عوج فيها ولا أمت.

أراح الصباح جنبي من مضاجعة الأرض وملأ عيني بعد فراغ كنت أحدق فى الظلام فما يصطدم بنور عيني غير فراغ هائل لا نهائى، أفتحهما ملء سعتهما فتزداد الأبعاد اتساعاً، وأحسبني أرى، ولكني فى تيه مما أرى، وأحياناً كان يتجسم هذا التيه فى مشاهد مما أتوقعه فى غدى وما رأيته فى أمسى القريب والبعيد. ولكن إشراقة النور أراحت عيني من هذا الفراغ الهائل، وهذه الأبعاد اللانهائية، فاستقامت الجدران الأربعة لتحد مما كنت فيه من تيه، وأقلعت بجنبي عن الأرض لأريح ظهرى على جدار الكهف وفتحت عيني من إغماضة، فكأن ستار مسرح قد انجلى أمامى عن منظر غريب: إنهم جميعاً نائمون، ولكنهم ينامون فى غير اتجاه وفى غير موضع

أخو القائد استلقى على ظهره وهو غارق فى قيئه يجتذب أنفاسه من فم مفتوح ليرددها شخيراً عالى النغمات، تتراقص حول فمه ذبابات، لا تكاد تطردها أصداء الشخير حتى تغريها حموضة ما تبقى من نتانة.

الشاب العارى يتوسد ذراعه فى اطمئنان وينش باليد الثانية فى عنف.

الشبان الذين صرعت أرجلهم سياط الشرطة انكمشوا فى جلابيبهم وكأنهم يحمون أنفسهم من عذاب يتوقعون

أفراد مبعثرون هنا وهناك، كلهم استسلموا لنوم عميق وقد أجهدهم تحقيق مفتشي الشرطة أو سكرة صاخبة فى ليلة حمراء.

وهناك فى أقصى الركن تنبعث وشوشة من فم يذكر الله ويطلب إليه أن ينجيه من محنته ، إنه الشاب الذى هدده مفتش الشرطة بالإعدام يصحو مع الفجر ليدعو الله فى ساعة الاستجابة .

وجلست أجيل الطرف فى المسرح الذى رفع الليل عنه ستاره . إنهم جميعاً ممثلون يشخصون رواية الحياة فى بلد يعيش حياة غريبة ، فسواء الذين أغرقوا همومهم فى كفاح ضد الطغيان ، أو الذين أغرقوها فى كأس خمر أو انتشال محفظة ، جميعهم هربوا من ضغط الحياة التى يحيونها وجميعم انتهى بهم المصير إلى المسرح : إلى كهف الشرطة . . . ! !

غرقت فى أفكارى حتى أصبح صباح موظفى المركز وحراسه الجدد ، وبدأت الحركة تعُم دنيا ما حول الكهف ، وكانت حركة حية صاخبة أيقظت النوام ونبهتهم إلى ما سيستقبلونه من يومهم ، وبدأ أهل الكهف ينفضون عنهم خمول ليلهم الطويل ، وجلسوا جميعاً القرفصاء تتجول عيون بعضهم فى جنبات الكهف لأنهم يرونه لأول مرة ، فقد دخلوه فى ليل مظلم ودخله بعضهم وهم فى غير وعى . ولذلك كانوا يستيقظون وكأنهم يكتشفون مكانهم تملأ عيونهم الدهشة وتملأ قلوبهم الحسرة والندم .

أخذ كل منا ينظر إلى الآخر وكأنه يستعرض مشهداً غريباً . إننا جميعاً أهل الكهف ، ولكن أحدنا لا يدرى عن صاحبه إلا أنه استيقظ فوجده بجانبه ، ومن يدرى لعل أخ القائد كان يتصور أنى أنا الآخر ضبطت فى عربدة هائلة . فكان مصيرى مثل مصيره ، إنها فكرة قد

تخفف عنه ما لعله كان يشعر به من خزى .

وبدأ نطاق الصمت يتحطم حينما انطلق الشاب العارى يخاطب أخا القائد :

ـ أنت يا سيدى القائد . . عرفت مكانك الآن ؟ هل فتحوا لك الباب لأن أخاك قائد . . ؟ ها . . ها . . كنت أسداً ولكن صفعتين من يدى تركتك هرة . . . أتذكر . . . ؟ انظر أمامك ما صنعت . . . مالك تحدق فى وأنت صامت ؟ ألا تذكرنى . . . ؟

وانطلق صوت العابد المتبتل من بعيد :

ـ هذه نتيجة السكرة العارمة . انظر مصيرك الآن ؟ هل شفعت لك أخوتك للقائد ؟

كان الرجل صامتاً يتلقى اللوم والتقريع فى ذلة وكانت عيون أهل الكهف تحيط به وكأنها تطارده ، ولم يعد الرجل يشعر بألم المكان الذى فتح عينيه على حقيقته ، ولكنه كان فى محنة من هذه العيون الشامتة التى تحاصره . ولم ينقذه إلا صوت من الباب ينادى :

ـ تعال أنت .

وترددت نداءات الصوت تطلب نزلاء الكهف ، وما أدرى مصير الذين خرجوا قبلى ، ولكنى أعتقد أن « حريتهم » قد تلقفتهم .

وانتظرت طويلاً حتى سمعت صرير مفتاح الكهف ، تلفت نحو الباب فإذا به هو . . . هو نفسه يطلبنى :

ـ تعال أنت هنا . . هنا . .

١١

وتعلقت بى عيون الرفقاء من أصحاب الكهف ، وأنا أجمع أطرافى المتهاوية تحت ثقل رطوبة الأرض وسهر الليل واحتداد الأعصاب . وقطعت الطريق بين « سريرى » فى الكهف والباب فى خطوات متثاقلة ، أجر رجلى فى حذاء مفتوح العقد . ووقعت عينى على الزميل العابد المتبتل فوجدت شفتيه تتحركان وكأنه يدعو الله لى فى سره . ونظر إلىّ نظرة كلها شفقة ورحمة . إنه لا يدرى ما إذا كنت سأعود إليه ممزق الأوصال أو سأستعيد حريتى فلا يرانى بعد ساعتى تلك ؟

ونظرت إلى مفتش الشرطة وهو ينتظرنى على الباب . فما دلنى وجهه على شىء ، كانت تقاطيع وجهه لا تتغير ، لا ينبض الخبث منها كما ينبض من وجوه كثيرة ولكنها تقاطيع حادة ، فيها آثار من جمال ، إذا كانت لا توحى بالابتئاس فإنها كذلك لا توحى بالاستبشار .

أقفل الباب من خلفى فإذا بى وجهاً لوجه مع ذلك الوجه المجدور وعلى فمه الابتسامة الصفراء .

— تعال معنا . . . اتبعنا ...

وتقدم المفتش الفرنسى وسار خلفى المغربى المجدور ، وسرنا نعلو درجات السلم إلى غرفة التحقيق .

كان التحقيق هذه المرة عمليًّا واقعيًّا . أفهمنى المفتش أن من مهمته أن يسجل أقوالى، وأنه ينصح لى بالكشف عن الحقيقة ، ولكن إذا تبين أنى قلت غير الحق ، فليس بمسئول إذا وكل بى من يستطيع أن يستعمل وسائل تجعلنى أتحدث . وكانت نصائحه مدعمة بالأمثلة : إن فلاناً قال الحقيقة بعد عذاب . . . وصديقك الآخر فلان هو تحت يدنا وقد اعترف . وخير لك أن تدلى بما عندك ، فليس من مصلحتك فى شىء أن يأتى آخرون مكانى . . . إنهم هنا يستطيعون أن يستخرجوا الحقيقة ، فأساليبهم لا تغرى بالكتمان . . .

وكنت أعرف ما ينصح بالوقاية منه ؛ ولكنى كنت صممت على أن لا أعترف إلا بما أريد ، وبدأ يسجل ، وبدأت أملى ويظهر أنه كان حريصًا على أن ينفق يومه معى، فقد كان باستطاعته أن يتخلص منى فى نصف ساعة ، ولكنه شغل مريح ، أو أنه أصبح مريحاً ، بعد أن أصبحت كل مهمته أن يسجل وأن لا يحاول استخراج معلومات أكثر مما أملى .

لم تمر ساعة أو بعض ساعة حتى أصبح لى صديقاً ، لم يعد يهمه أن يقوم بوظيفته ، ولكنه أصبح كل همه أن يضيع الوقت فى الحكايات، وكنا ثلاثتنا نشترك فى أحاديث تثير الضحك ، كنت أسمع أكثر مما كنت أتحدث ، ولكنى كنت أشارك فى الحديث حينما يطلب إلى أن أبدى الرأى أو أضيف ما أعرف إلى ما يتحدثان به .

لقد سرى عنى فعلاً ولم أعد أحس أنى بين يدى مفتشى الشرطة، وتخيلت أن تعليمات صدرت بعدم استعمال العنف ، وأن السيد المفتش وجدها فرصة لقضاء يوم لا يستخدم فيه أعصابه .

قضينا الصباح فى حديث ودى، وكان من الممكن أن أتصور أن فترة الظهيرة سأقضيها فى منزلى . وقبل أن ينصرف إلى غذائه سألنى : هل أنت فى حاجة إلى شىء ؟ وقد انتهزت الفرصة فسألته : هل بإمكانى أن أتحـــدث إلى زوجتى تليفونياً لأطلب غذائى وبعض فراش أتقى به قساوة الأرض ورطوبتها ، ولم يجد مانعاً من قانون أو خلق فكان كريماً أبلغ الكرم .

لم تصدق زوجتى أنى أتحدث إليها بعد يوم ونصف يوم ، ولكنها حينما تأكدت هتفت :

ـ ومتى ستعود ؟ إن أحمد فى انتظارك .

ـ سأعود متى فتح باب الحرية فى وجهى .

ـ المهم هل أنت بخير ؟

ـ لو لم أكن بخير لما حدثتك .

ـ وأين قضيت ليلتك ؟

ـ فى المنزل الذى تقضى فيه مثل ليلتى . . .

وما مرت لحظات حتى كنت أتناول غذائى وبين يدى ما أستطيع أن أتقى به عنف الأرض وقسوة رطوبتها .

كنت فى مكتب مفتش آخر لعله كلف بملاحظتى حتى لا أفر... كان ينظر إلى شزراً ، ويحاول أن يكتشف فى وجهى أى نوع من أنواع الإجرام ارتكبت ، يحاول أن ينطق فيسألنى عن ذنوبى ولكنه كان يبعد الكلمة من شفتيه ، فليس من حقه أن يتنازل فيسأل مجرماً عن جرمه ، ولعله اقتنع أخيراً بأنى من هؤلاء الذين يفسدون أمنهم ، فمن العبث أن يسأل أو يستفهم .

ومرت ساعة أو بعض ساعة ، وإذا الباب يفتح فى عنف .

ـ آه . . . أنت هنا . . . ؟ لقد جئت أبحث عنك . .

ـ ألم تذهب إلى منزلك . . . ؟

ـ إن الدور على فى مواصلة « العمل » ولهذا جئت أبحث عمن أتسلى معه . . . هل لك فى دور أو دورين من لعب الورق . . . ؟

ـ ولم لا ؟ . . لقد سئمت الوحدة .

وبدأت قطع النقود وأوراق اللعب تتبارى فى الصراع على صفحة مكتب « العمل » . وظللت أتابع اللعب من بعيد ، وقد أخرجنى من منطقة الصمت التى ضربت حولى ، وأنقذنى من النظرات الشزراء التى كان السيد المفتش يشغل وقته بها وكانت تزيد فى حدة أعصابى .

وانتهى اللعب باستئناف وقت العمل . وتسلمنى السيد المفتش صديق فترة الصباح ليقضى معى فترة المساء فى إلقاء الأسئلة وتسجيل الأجوبة .

وكان علىّ أن أقضى ليلة أخرى فى الكهف ، فقد استدعى المفتش

لمهمة مستعجلة ، فأصدر الأمر بإنزالى إلى الكهف حتى صباح الغد ليستأنف تحقيقه .

ومرة أخرى أقبلت على الكهف ، وعلى محنة القذارة فيه ، ومرة أخرى بدأت أفكر فى ليلة ليلاء مع السكارى والمقامرين والنشالين والوطنيين . . . وبدأت أستعد لأن أنام مع ملايين الذباب الذى لا يجد متنفساً من محنة الكهف، وكانت ساعة لم يهدأ فيها تفكيرى .

ثم فتح الباب بعنف .

إنه هو يطلبنى باسمى :

ـ تعال أنت . . . هنا .

١٢

وتخيلت كل شيء . . .

أخذ تفكيرى ينطلق فى كل اتجاه . وفى اللحظات التى أفاجأ فيها بعمل أو قول يصدم كيانى يعمل تفكيرى بسرعة هائلة غير معهودة ، وفى زنزانة السجن على الأخص يأخذ الفكر طريقه إلى الانطلاق خلف السدود والقيود بقوة الصاروخ .

لقد انتهيت منه ، ولفظته وأنا أجتاز عتبة الزنزانة من جديد . . . وعاد يطلبنى ... ترى أيمنحنى الحرية لأنطلق مع الآخرين ، أم يدفع بى إلى غرفة أخرى من نوع الغرف التى كان يهددنى بها فى الصباح ؟ أم أنها معلومات جديدة تلقاها سيحقق معى فيها ؟ وتبعته هذه المرة أكثر نشاطاً وحيوية مما كنت فى الصباح .

إنه المفتش ومعه الزميل المجدور الوجه ، وثالثهم كان من مفتشى الشرطة المعروفين فى الرباط ، قصير القامة ممتلئ الجسم ، قوى البنية ، وافر النشاط والحيوية ، يعرف الوطنيين معرفة أساسية بأسمائهم وأعمالهم ، ويحدثك عنهم — فى غيبة رؤسائه — حديث العارف . المطلع بل إنه ليحيط حديثه بهالة من العطف والتأييد حتى لتشعر بأنه استقلالى متطرف.

وارتسمت علامات الاستفهام تلك على محياى وأنا أتبع المفتشين

الثلاثة إلى غرفة قريبة من الزنزانة .

ـ ابتهج لقد قرر عميد الشرطة إخراجك من هنا .

ـ . . ؟ ؟

ـ ستنقل الآن إلى المحكمة لتبت فى أمرك . .

وفكرت . . . محكمة ؟!! وفى الساعة السادسة مساء ؟! ماذا تقول المحكمة ، وماذا أقول للقضاء . . . ؟

وعاجلنى المفتش الرئيسى

ـ ساقرأ عليك اعترافاتك لتوقع المحضر ، وعلى أساسه ستنظر المحكمة فى أمرك .

ـ المهم أنى لن أعود إلى الكهف . . ؟

وانطلقت من أفواه المفتشين الثلاثة قهقهات ناعمة :

ـ لن تعود . . . فقضيتك ستخرج من يد الشرطة نهائيًا .

والواقع أنى ابتهجت ، وأن هذا الخبر السار لم يكن يقل مطلقاً عن خبر الإفراج عنى لو أن عميد الشرطة قرر ذلك .

وقعت المحضر . وخرجت من المركز محاطاً بالمفتشين الثلاثة ، وكان وداعاً حارًا للبوابة التى دخلتها منذ يومين . وعدت بذاكرتى إلى الوراء ، فخيل إلى أنه ماض سحيق تعاقبت فيه أحداث كثيرة ضخمة ، هذه البوابة التى عرفتها منذ يومين ودخلتها بين صفين من رجال الشرطة خيل إلى أن تاريخاً حافلا يفصل بينى وبينها ، وتمثلت المشاعر المختلطة التى

انتابتنى وأنا أدخل البوابة المشئومة . إن تلك المشاعر لم يتحقق منها إلا هذا الألم القاسى الذى يهرى عظامى ، وإلا ذكريات حافلة بأحلام السكارى والنشالين والمغامرين لقد كونت فى الكهف أصدقاء قد يأسفون على وداعى هذا العابد المتبتل الذى يخشى تهديد الشرطى بإعدامه . وهذا الفأر الصغير الذى دأب على سرقة عشائى كلما عسعس الليل ، وهذه الأسراب من الذباب التى طرقت كل أبواب الكهف لتنطلق إلى عالم الحرية فلم تجد سبيلا إلى الخلاص . كل هؤلاء الأصدقاء سيتفقدوننى فى الركن المنزوى من الكهف المظلم ، وقد يأسفون على فراقى ، ولكنى أودع البوابة غير آسف إلا على الشاب العابد الذى كان يطعمنى من « اسفنجه » كل صباح .

وأسلمتنى البوابة إلى سيارة « جيب » ، وفى السيارة فوجئت بالصديقين كما فوجئت بهما عند مدخلى لمركز الشرطة ، وتطلعت إلى وجهيهما ، فوجدت علامات الابتهاج تعلو محياهما . وتخلصنا جميعاً من نطاق الصمت فاستطعنا أن نتحدث عن ليالى الكهف ، وكان المفتش « الوطنى » يشاركنا الحديث ، ويقص علينا من قصص الوطنيين والمزيفين الذين مروا من مركز الشرطة ، ويتحدث فى إسهاب عن مساعدته للاستقلاليين المخلصين .

وفى باب المحكمة تطوع المفتش الفرنسى لينوب عنا فى كل الإجراءات الشكلية :

– ظلوا مكانكم ... سأنقل ملفكم إلى « القاضى » لينظر فيه وسأبلغكم النتيجة . . . ! !

لم نفاجأ بهذا الإجراء ، فالمحكمة تستطيع أن تأخذ قرارات غيابيًّا كما تأخذها إجماعيًّا فقد اشتهر عنها أنها تحكم على الوطنيين « بالجملة » وكان الوطنيون يحاكمون وهم على ظهر سيارة شاحنة ، وينقلون إلى السجون والمعتقلات كما تنقل شاحنات الخراف إلى المجزرة دون تمييز بين الأسماء و « الأفعال » فديمقراطية « الحكم » كانت تقتضى عدم التمييز بين الوطنيين وغير الوطنيين . والسجن وسيلة من وسائل المساواة ، فلا غرابة إذن إذا اختصرت الإجراءات وحكم على « القائمة » أو « الشاحنة » .

ولم نكن ننتظر ونحن فى باب المحكمة غير مصير واحد هو السجن . إنه أسهل طريق يخلص قاضى التحقيق من البحث والاستنطاق .

ولم ننتظر طويلا . فقد عاد المفتش وهو يحمل ملفه والتفت إلى سائق السيارة آمراً :

– إلى سجن العلو .

١٣

رن الجرس خلف البوابة الكبيرة الموحشة التى ماتت الحياة من حولها، فانفتحت كوة صغيرة أطلت منها عينان نافذتان دارتا فى محجريهما وكأنهما تكتشفان أو تعدان : واحد ، اثنان ، ثلاثة .

وكانت لحظة لم تشغلنى رهبتها عن التطلع إلى الأسوار العتيدة التى يختفى وراءها عالم آخر وقفت على عتبته فى شىء من اللامبالاة ، بل فى شىء من غبطة التخلص من الكهف اللعين هى أسوار ضخمة عاتية تحدث عن الخلود ، خلود عالم السجون والقيود ، وتحدث عن اليأس وفقدان أمل الإنسان فى ألا يجد رواداً وزبناء لدار الانتقام والحجر على الحريات

وارتفعت عيناى إلى قمة الأسوار العالية فإذا به واقف يطل فى تيقظ أو فى فضول وبندقيته تحتل مقعدها العتيد على كتفه ، وهو ينظر إلينا نظرة لا تحمل معنى غير معنى العدد : واحد. اثنان . ثلاثة . . .

إنه الحارس الليلى ارتقى السطح برج المراقبة والحراسة ، لا حراسة السجن من الخارجين عنه . ولكن حراسة عالم الحرية من ضيوف السجن ونزلائه .

ودارت عيناى ، متلفتة إلى الخلف ، فإذا به يذرع المسافة بين

طرفى البوابة فى حزم وعزم . وكأنه يباهى بالبندقية التى تحتل مكانها المرموق بجوار العمة وقد لفت على طربوش فى حذق رسمى ، ولم تثر من ذهنه إلا حاسة العدد : واحد ، اثنان ، ثلاثة . . . إنه حارس البوابة الخارجى ، وقد ابتدأ مهمته الليلية وما تزال به قوة وحيوية

للرقم دلالته فى عالمنا الجديد ، فما نحن بأسمائنا وشخصياتنا وجريمتنا وعقابنا غير أرقام تضاف إلى الأرقام التى احتلت من قبلنا مقاعدها داخل دار النقمة فتكون جميعاً رقماً واحداً هو الوديعة التى يحتفظ بها حارس السطح وحراس البوابة والفناء والممرات . .

واحد ، اثنان ، ثلاثة أرقام يعيش بالحفاظ عليها عشرات الحراس الذين يتعاقبون على سجن العلو بالليل والنهار ، ولم نكن نحن : ـ واحد ، اثنان ، ثلاثة ـ إلا مسئولية جديدة تضاف إلى مسئولية الرقم الذى تسلمه كل حارس وهو يتسلم مهمات عمله الليلى .

أيقظنى من هذه الخواطر صرير مزعج انطلق من فتحات المفاتيح واندفاع قوى لمزلاج ضخم وهو يصطدم اصطداماً عنيفاً بحصاره الحديدى. وتراجع أحد مصراعى البوابة إلى الوراء قليلا . ووقف صاحب العينين النافذتين يتطلع إلينا فى هدوء وعيناه تتأكدان : واحد ، اثنان ، ثلاثة . . . إنه رجل ربعة بدأت أخاديد الزمان تخط مشروعها على خديه الأسمرين ، بدين الجسم ، منتفخ البطن ، مترهل العضلات ، وجهه لا ينطق بالخبث ، ولكنه يحاول أن يخفى طيبة قلبه وراء مظهر من الجد

والصرامة وتصنع الانفعال والعنف ثم تراجع ليفسح لنا الباب وهو يصهل زد . وتراجع مفتشو الشرطة من جهتهم ليفسحوا لى الطريق وخطوت نحو البوابة فى إقدام ، وسمعت شفتى الحارس تتمتمان: واحد ، اثنان ، ثلاثة . . .

ودخل مفتش الشرطة الفرنسى خلفنا ، وعاد مصراعا البوابة الضخمة إلى عناقهما الأبدى . وكأنهما يعلنان :

هذا عالمكم الموعود منذ اليوم . . .

وأعلن مفتش الشرطة بالفرنسية وهو يؤكد :

ــ ثلاثة . . . أين رئيس السجن ؟

ــ الرئيس انصرف وما هنا غير الحارس العام .

دار هذا الحديث القصير بين بابين . فالعدد : ثلاثة ، لم يضف بعد إلى الرقم الذى صكت فى وجهه الأبواب ، وقد خرج من باب الحرية . فهو ليس فى السجن « رسمياً » ولا خارج السجن ، ولن تفتح الأبواب الداخلية إلا بعد التسجيل . وعالم (البين بين) عالم انتظار وتوقع واستعداد ، ففيه لمحنا ظلام السجن ، فما هناك غير بصيص من نور ينبعث من كوة فى أعلى البوابة الثانية . وفيه بدأت أنسام السجن تهب علينا . وهى نسمات تزعج الأنف برائحة العفن والقدم والرطوبة ، وفى عالم ما بين البوابتين بدأنا نسمع الأوامر

ــ قف أنت هنا ، وقف أنت هناك ، وأنت ابتعد قليلا . . .

وانفتحت بوابة صغيرة أطل منها رجل قصير القامة معروق الخدين ذابل العينين أصلع الرأس إلا من شعرات تحرس القمة الفارغة ، وتلفت يمنة ويسرة وعيناه تعدان : واحد ، اثنان ، ثلاثة . . .

تقدم إليه مفتش الشرطة محيياً ، وقدم إليه أوراقاً علمنا فيما بعد أنها الإذن بالسجن ، ثم قدم إليه ورقة يطلب إمضاءها هى وثيقة تسلّم العدد : واحد ، اثنان ، ثلاثة . . . وقبلها الحارس العام مبتسماً شاكراً ولكنه قبل أن يوقع التفت نحونا يناديا بأسمائنا فى فرنسية كورسيكية وما نطق الاسم الأول حتى تلفت حارس البوابة إلى فى لهجة الآمر

— قل « بريزان » .

قلت بالعربية :

— حاضر .

وارتفع صوت الحارس واشتدت لهجته وأخذت يداه تشيران إشارات عنيفة :

— قل : بريزان . . . بريزان .

قلت فى صوت هادئ ضعيف

— بريزان .

وأطاع الزميلان دون عناد ، فهى لغة سنستعملها فى اليوم عدة مرات ، وليس من المصلحة فى شىء أن نبدأ فى العناد ونحن بعد على عتبة « بيت الطاعة » . . .

وقع الحارس العام الورقة ، وانصرف مفتش الشرطة دون أن يلقى علينا نظرة وداع . إننا فى نظره « عمل » وقد نفض يده من عمل لعله يلعنه فى أعماقه ، ثم إننا سجناء خارجون على القانون ، وما يحق لنا أن نتلقى تحية إقبال أو وداع .

ونفس الشعور خامرنى والبوابة الكبيرة تغيبه عن أنظارنا : إنه مفتش شرطة ، وعمله يقترن بالعنف والقسوة ، وإذا كان معى غير عنيف فقد كان من الممكن أن يكون عنيفاً ، إنه يغرب عن وجهى إلى غير لقاء ولكنى غير آسف على فراق شخص لم أتعرف عليه إلا فى غرفة الاتهام بمركز الشرطة .

وفتحت البوابة الثانية فى وجهنا ونادى الحارس فى عنف وجلبة :

ــ ادخلوا . . . يالله . . . أسرعوا . . .

وكان الرد هو الامتثال فكل حوار منذ اليوم لا يتخذ غير شكل واحد : الأمر ، ثم الامتثال .

كان فناء السجن متسعاً ، وكانت أرضه المغطاة بالصلد نظيفة ، وحول الفناء أبواب ضخمة قاتمة مقفلة بمزالج قوية .

وكان الهدوء يحيط بالفناء الواسع فلا إنسان ولا صوت إنسان ، عدا بعض الحراس الذين يسيرون فى عنف أو يتنقلون من جانب إلى آخر . وقد يخيل إلى الملاحظ أن الفراغ يملأ السجن ، ولكنها الأقفاص قد سدت منافذها على صيدها ولا تسمع من ورائها غير وشوشات تنبعث أصداؤها

خلف قضبان الحديد التى تعترض كوات ينفذ منها هواء ونور للعنابر الضخمة .

أنزلنا ما كنا نحمله من متاع وما فضل من طعامنا وجلسنا على الأرض نتحدث ونحكى من ذكريات ألفى ليلة عشناها ليلتين فى كهف مركز الشرطة .

وانطلق صوت أجش عنيف قوى :

ـ اسكتوا فلستم فى الشارع ، ألا تدرون المكان الذى أنتم فيه ؟ تفرقوا ، كل منكم ينتحى ناحية . . .

وأطعنا

ما المصير ؟ ماذا نفعل . . . ؟ أسئلة تتوارد على الذهن ، ولكن لاجواب عليها ، فلم يعد فى استطاعتى أن أجد الجواب لكل سؤال ، فحينما اجتزت عتبة البوابة أصبح تفكيرى يقف عند السؤال لأن حريتى تقف عند ذلك .

وصدرت الأوامر لنذهب محروسين إلى مكتب الحارس العام

ـ اسمك ؟

ـ . . .

ـ أبوك ؟

ـ . . .

ـ أمك ؟

— . . .

— جدك ؟

— . . .

— مهنتك . . . ؟

وأجبت

— عاطل ؛ لامهنة لى .

— عاطل ؟ ومم تعيش ؟ لا يمكن أن تكون عاطلا

— كانت لى مهنة . أما الآن فلا مهنة لى .

— وكيف فقدت مهنتك ؟

— كنت صحفيًّا ، ولكن الصحافة أصبحت غير ذات موضوع منذ نصف عام أو يزيد .

— وما عملك فى الصحافة التى لم تعد ذات موضوع ؟

— كنت رئيس تحرير مجلة . . .

— آه . . . إذن فأنت صحفى ؟

— بالقوة لا بالفعل .

ووجد الحارس العام نفسه أمام صحفى وموظف وأستاذ . . إنهم « ثلاثة ولكن وزنهم فى عالم الحرية وزن ثقيل . وتغيرت لهجة الحديث ، وارتسم على الملامح القاسية مشروع ابتسامة وبدأت « ڤو » تحل محل « تو » فى الخطاب

وجاء الحارس ليتسلم الأرقام . وينقلهم إلى مكان إيوائهم فصدرت إليه التعليمات بالاحترام و بمعاملتنا بامتياز ، وكان كل الامتياز أن يضاف إلى اللحافين لحاف ثالث لكل منا

— اتبعونى .

هكذا صاح الحارس فى لهجة أقل حدة .

وصعدنا خلفه أدراجاً حديدية ، وفى وسط ممر طويل وقف عند باب الزنزانة رقم ٢٤ وفتح المزلاج فى عنف

— ادخلوا

ولم يكد آخرنا يجتاز العتبة حتى أنصفق الباب خلفنا . وصرّت المفاتيح الضخمة طق . طق . طق . . .

١٤

وكانت فرقعة المفاتيح تعنى أنه السجن . فقد أسلمتنا البوابات إلى فناء فسيح . ولكن الفناء لم يوح مطلقاً بأننا فى سجن فهو فناء له حظه من شمس ونور وهواء . وللعين حظها من الامتداد . وهو أقرب مكان إلى بوابات الحرية . فما شعرنا بالأثر الذى أحدثته فرقعة المفاتيح فى نفوسنا حتى تلفتنا فوجدنا أنفسنا بين أربعة جدران . ولم يكن الباب القوى السميك الضخم غير جدار تحالف على أن يكتم الأنفاس فى حر غشت اللافح .

وبدأت أذنى تألف الصمت والوحشة فقد كنا ثلاثتنا نتحدث وكأننا فى عالم منعزل عن عالم الأصوات والأصداء والهمسات ، فما ينتهى المقطع من حديث أحدنا حتى ينتهى معه صداه ، فالأفق كان أضيق من أن يكون فيه صدى لصوت أو ترجيع لحركة .

وتلفت أحدنا للآخر وكأنه يقول : إنه السجن .

كان كهف مركز الشرطة سجناً . ولكنه كان يحمل معنى التوقيت . فلم نكن ننتظر أن نظل فيه الشهور ذوات العدد . وكان سجناً ولكنه كان متسع الأرجاء يتسع للعشرة والعشرين من السكارى والخارجين عن القانون . أما غرفتنا هذه فقد لا تتسع لأكثر من « جسم » واحد ، ولكنا ثلاثة

وقطع على تفكيرى صوت الزميل :

ـ اسكت . . . اسمع . . .

وكانت مئات أصوات تردد صداها أبهاء السجن ودروبه تتلصص إلينا من خصاص الباب ، إنها أصوات المعتقلين من الوطنيين ترتل آيات القرآن فى قراءة جماعية ، كما اعتادوا وهم أحرار أن يقرأوا القرآن بعد كل مغرب . إن أجسامهم وحدها هى التى فقدت الحرية ، إنهم يفكرون ويتصرفون ويعيشون كما لو كانوا أحراراً ، وذلك هو الروح العظيم الذى يهيمن على سجون الحرية .

اقشعر جسمى وهو يتلقى هذا التيار القرآنى الذى يتخطى السدود والقيود لينفذ إلى القلب ، وكأنى لم أقرأ القرآن ولم أستمع إلى قرائه قبل الآن . هذه الأصوات التى تدلف إلينا أصوات عامرة باليقين والإيمان . إنها تسخر من البوابات الضخمة التى تعانقت مصاريعها لتأسر جموعاً من أبناء القرآن ودعاته ، إنه الفكر القرآنى ينطلق من عقال البوابات ليؤكد إيمان أبنائه بالحرية ، وليعلن للسجانين وحراس السجن أن دعوة القرآن لا بد بالغة وأن تحرير القرآن للعقول والأجسام من سيطرة البغاة تحرير كامل ، والحرية تبلغ منتهاها فى تحطيم القيود المزيفة .

وساعتئذ آمنت ، أو أنى زدت إيماناً ، بأن السجن ليس إلا مرحلة عابرة ، وأن بواباته الضخمة لم تكن إلا طريقاً للحرية نسلكه أفراداً حيث نلتقى فى الخضم العظيم لنزحف زحفنا الكبير على باب الحرية الحقيقية .

وظللت أتتبع الآيات وأقرؤها مع المقرئين وكأنى لم أسمعها قبل الآن، حتى انتشلنى من أفكارى أحد الزميلين

ـ عد إلى عشائك فسيطفأ النور بانتهاء أجل العشاء .

ـ أو نحرم من نور . وقد حرمنا من حرية ؟

ـ قوانين السجن ـ وأنا أعرف ذلك ـ لا تسمح إلا ببعض ساعة من نور يمكنك فيها أن تتناول عشاءك .

وتجمعنا ثلاثتنا حول بقية من غذائنا حملناها معنا ، وما بدأنا الأكل حتى سمعنا وقع أقدام عنيفة قوية رتيبة تقطع البهو ، وبدأ صوت يجلجل يردّد صداه البهو الطويل العميق

ـ اسكتوا . . . ناموا

ونطق الزميل المجرب

ـ قلت لكم سيطفأ النور حالا . . . إنه الحارس الليلى العام يجول جولته الأولى . ويطفئ النور

ـ وهل ننام منذ الساعة . . ؟

ـ المهم أنك ستبقى فى الظلام منذ الساعة . . .

وقاطعه الصوت المجلجل . فقد كان الحارس يطل من ثقب سرى فى الباب

ـ اسكتوا ناموا

ثم أطفأ النور

وساد الزنزانة رقم ٢٤ جو من الوحشة فالظلام تصطنعه لنفسك أنساً ورحمة إنك تطفئ النور أحياناً لتعيش مع أفكارك بعيداً عن المؤثرات التى تنفذ من بصرك . وإنك لتطفئه لتريح أعصابك فى هدوئه . فالنور أحياناً يحمل معنى الضوضاء والحركة وإنك لترغب أن تتخلص من ضوضاء الحياة فلا تجد سبيلا فى غير ظلام الليل الناعم الهادئ المؤنس.

ولكن ظلام السجن الذى تفرضه عليك سلطة أعلى من إرادتك يتقمصك وكأنه غول ينفذ إلى أعماقك إنه ظلام لا يؤنسك ولا يريح أعصابك . ولكنه دوىّ هائل يملأ عليك آفاقك . إنه العذاب للأعصاب المتوترة قد تجد فى النور أنسها . ولكنها لا تجد فى الظلام إلا عذابها. إنها بوابة جديدة تطبق على العالم الضيق الذى يحتويك كان عهدى بالظلام وسيلة إلى انفتاح الآفاق . فإن نفسى تصفو كلما تخلصت من الجدران والأثاث والناس من حولى . فتسبح أفكارى فى عالم لا محدود . وتسبح روحى فى عالم الذكريات العزيزة . وكم يلذ لى أن أطرد النوم من عينى لأنه ينتزعنى من لحظات عذاب . ويفسد علىّ هذا التجلى الذى لم أكن أعرفه إلا فى ظلام الليل . أما فى ظلمة السجن فإنى كنت أرحب بالنوم لأنه خلاص من عذاب . عذاب السجن وعذاب الظلام .

ولكن الزميل المجرب أبى أن يترك ظلامنا ظلاماً قال

ـ سأتحدث الآن عن طريق الهاتف إلى أصدقائنا فى السجن . . .

ـ الهاتف

وانطلقت قهقهاتنا جميعاً وهتف الزميل . وهو يستجمع بقية من ضحكته

– اطلب إذن رقم ٢٨ فسيجيبك سكان الزنزانة الرابعة بعد زنزانتنا ...

– سترى إذن . . وستعرف ما إذا كان فى إمكانى أن أتحدث فى التليفون ؟

– ومن سيدفع الحساب ؟ إن ما تبقى من فرنكات فى جيبك قد احتفظ بها الحارس العام . فمن أين ستدفع ؟

وزادت قهقهات الزميل حدة مع الظلام . وكأن أصداء أخرى تنبعث من ظلام السجن لتجعل سخرية الزميل أكثر وقعاً فى النفس .

– اسمعا إذن . .

قالها وهو ينقر بعقد أصابعه على الحائط نقرات منتظمة وكأنه يعزف على بيان أو يرسل إشارات لاسلكية .

وصمتنا جميعاً فعاد الظلام يلف الزنزانة بسكونه . وتعلقت أنفاسنا ونحن نتتبع نقرات الزميل . ولكن ظلام السجن كان يكتم أنفاسها ؛ فلا رجع لها ولا صدى حاولت أن أتكلم ، ولكنى أشفقت أن يكون فى كلامى ما يخيب ظن الزميل العزيز

ولم ييأس

– يظهر أن الغرفة المجاورة خالية فلأجرب مع الجيران الآخرين .

وعاد ينقر على الجدار المقابل ، ولكن لا رجع ولا صدى . ولم

تؤثر الهزيمة فى نفسه ، فتحدى عزلة السجن :

ــ لا بد أن نتحدث . . لا بد أن نعرف مصير أصدقائنا . . . لا شك أن زنزانات هذا البهو تضم العديد منهم فسأتحدث إليهم وسترون .

واندفع فى الظلام يتلمس الباب بكلتا يديه ، وهو لا يخشى أن يصطدم بشىء . فما فى الزنزانة شىء يمكن أن يصطدم به غيرنا نحن الثلاثة . وقبع عند أسفل الباب وبدأ صوته خافتاً ينادى الأصدقاء ممن يعرف أنهم اعتقلوا .

وصمت ليسمع رجع الصدى ، ثم علا صوته قليلا قليلا . . ينادى أسماء الزملاء والأصدقاء . وسمعنا ثلاثتنا صوتاً من بعيد يجيب :

ــ نعم . . من يتكلم ؟

ــ أنا فلان . . معى الزميلان : فلأن . . وفلان ، فمن معك ؟

ــ إننا خمسة وعشرون نحتل زنزانات البهو جميعه

وبدأنا نسمع أسماء الأصدقاء والزملاء من الوطنيين فى الرباط وسلا ،

وعاد الزميل فى الطرف الثانى من الخط يسأل : هل أنتم بخير ؟

ــ نعم بخير ، وإلى اللقاء .

ثم عاد السكون يخيم على الزنزانة الموحشة ، إنه الظلام يلف وجودنا ويكتم أصداء مشاعرنا ، فمرحبا بالنوم بعد أن لم يعد لنا من سبيل إلى حياة .

١٥

وهل أستطيع أن أتصرف كما أتصرف فى عالم الحرية ، أدعو النوم إلى عينى كلما اشتقت أن أغير من حياتى ، وألوذ بالفراش كلما أضنانى تعب أو أحسست بالحاجة إلى خلوة أو هدوء ؟

عالم السجن عالم آخر تنقلب فيه القيم وتتغير أوضاع النفس ويستجيب الجسد لانفعالات جديدة تفرضها عليه أربعة جدران تنعدم إرادة السجين فى أن يجعل منها ثلاثة .

وقلت فى نفسى

هذه هى الليلة الأولى . ولا أدرى كم سيتلوها من ليالٍ . . فنحن سجناء على ذمة التحقيق . والتحقيق فى يد حاكم لا قانون له ؛ فهو مستطيع أن يحقق ويفرج عنا فى الصباح فتكون ليلة فريدة تنتهى ببزوغ فجرها ، ويستطيع أن يضع الملف على الرف ؛ وليست هناك إرادة أخرى تخضعه لعملية التحقيق والبحث . ومعنى ذلك أن الليلة ستصبح ليالى ، وأن السجن سيصبح دارنا الجديدة .

الليلة الأولى فى طريق طويل غامض يكتنفه ضباب كثيف قد يتكشف عن مفاجآت خطيرة .

الليلة الأولى فى عالم ملىء بالوحدة والعزلة والانقطاع عن عالم الأحياء

الأحرار خارج الجدران الأربعة أمة تكافح فى سبيل الكرامة وقد شلت الزنزانة أفكارنا وأيدينا عن أن تعمل مع العاملين لتحقيق الكرامة . الزنزانة تفصلنى عن عالم انغمرت فيه بكل إرادتى وإيمانى . وكان بإمكانى أن أحقق فيه نصيباً من إعادة الكرامة إلى أمتى ولكنه الظلام يلفنى اليوم بردائه الكثيف

إنه ليس ظلاماً يحجب نور العين عن أن ينفذ إلى الحقيقة . ولكنه ظلام يخدر الإرادة والفكر . ويقيد انطلاقهما فى حرية إلى عالم الأحرار فى ميدان الكفاح

أية مسئولية أتحملها منذ اليوم ؟

ما كان لى أن أقبع فى مكانى أنتظر الكماشة تطبق على فأحرم نفسى من شرف العمل

إننى الآن أخنع فى بلادة هذه الزنزانة الضيقة تطبق بجدرانها الأربعة على كيانى كان يجب أن أنطلق فى عالم الأحرار ، فأتخطى ظلمة السجن إلى نور الحرية . ولكنه الواقع . واقع الزنزانة ، يعيدنى إلى عالم الظلام . وبينى وبين الحرية بوابات سبع لن أحاول تخطيها فما فى دمى بعدُ اندفاع المغامرين ولا جرأة المخاطرين

وانتفضت من « فراشى » أستجير من قساوته وصلابته ورطوبة أرضه لأمنحه الجانب الآخر من جسمى فما اعتادت بعد عضلاتى أن تنسجم مع قساوة الأرض وعنف مهادها وأرخيت مسامعى لأتسمع

شخير الزميلين ، ولكن صدى أنفاسهما كان عادياً ؛ فما منهما أحد استجاب له النوم أو استجاب هو له . إنهما ولا شك يعيشان مع أحلام اليقظة فى الليلة الأولى . .

وفكرت أن أطرد أفكارى بالحديث إليهما . ولكنى فضلت ألا أقطع حبل أحلامهما ، فما منهما إلا ويقضى ليلته فى دوامة من الأفكار يربط واقعها ماضيها بمستقبلها

وعدت سريعاً إلى نفسى . ووجدتنى أفكر فى زوجتى وولدى إنها كانت شجاعة حقاً ، واجهت سجنى بقوة صبر ونفاذ عزيمة وكانت تحسب بقائى إلى جانبها نوعاً من الجبن . أو فضلة من عار ، كانت تتوقع سجنى ، ولذلك شيعتنى بابتسامة مشجعة وأنا أغادر باب المنزل بين خمسة من ضباط الشرطة وكانت تعتبر سجنى مفخرة ، لأنها أحست معى بأن « الحرية » لا تليق فى عالم ضاقت فيه الحرية حتى أصبح كقفص ، يتجول فيه الطير . ولكنه سجين مهما اتسعت أرجاء القفص وكانت قد عودت نفسها أن تتحمل مسئوليتها ومسئولية المنزل ، ولذلك كان من الطبيعى أن أنصرف للقيام بواجبى ، وقد غدا السجن جزءاً من هذا الواجب . وهى من أجل ذلك لم تأس على فراقى لأنها تعرف أنه ضريبة أؤديها عنى وعنها .

وستبحث عنى غداً فى مركز الشرطة ، ولكنها ستعرف طريقها إلى باب السجن ، فالمصير كان معروفاً قبل أن نفترق .

وهو ما يزال صغيراً يتعرف على دنياه ؛ وقد ارتبط بشخصين أحبهما واطمأن إلى حدبهما وحنوهما فتح عينيه منذ يومين يبحث عنى فلم يجد . . أبوك مسافر وسيعود غداً . . . وهو ينتظر الغد ، وما يدرى مدى لهذا الغد ، ولكنه سيسمع كل يوم : سيعود غداً . . . وسيفقد « الغد » فى ذهنه الصغير معناه الحقيقى ، بل إنه سيقترن بأبعاد لا نهائية ، ولكن « الغد » مع ذلك ستظل كلمة محببة إليه لأنها اقترنت بعودتى المأمولة .

أتراه الآن يعيش مع أحلامه وقد حقق غده المأمول ، وعاد والده من سفره يحمل بين يديه هديته المحببة ؟ ليت ... ثم ليت . . . ولكنه سيفتح عينيه من نومه العميق ، ويبحث عن واقع الغد فلا يجد غير الأمس ، ويعود إلى سؤاله : متى يعود أبى . . . ؟

وانتزعت نفسى من هذه الأحلام فما ينبغى أن أعيش أول ليلة فى ذكريات حزينة . إن الواقع يفرض أن أكون معه وزوجتى وولدى سيعرفان واقعى وسيقدرانه ، وقد يفتخران به . وأنا منذ الليلة أسبر ، يملأ عالمى ظلام السجن ، فما ينبغى أن أضيف إليه ظلام النفس .

أنا منذ اليوم فى منزلى الذى ارتضيته ، فلأتصرف كما أتصرف فى حياتى ولأسلم نفسى إلى نوم عميق .

١٦

أغمضت عيى أنادى نوماً لم أنعم بطعمه ليلتين كاملتين ، وكنت أرجو من النوم أن يخلصنى كذلك من غول الظلام الذى أطبق على نفسى مثلما أطبق على ذاتى فالنوم انصراف عن عالم الحياة بكل مباهجها ومآسيها ، وإذا كانت الحياة محببة إلى النفس ، فكثيراً ما تشتاق النفس كذلك إلى التخلص منها إلى عالم آخر ، فيه لذته وشقاؤه ، فيه نعيمه وبؤسه ، وهو على كل حال عالم آخر ، عالم الأحلام تعوض فيه النفس ما لم تستطع تحقيقه فى عالم اليقظة .

والذين يعيشون بقلوب باردة يستوى عندهم عالم اليقظة بعالم الأحلام، يقظتهم كأحلامهم ، وليلهم كنهارهم ، لا تعمق فيه الذكريات كما لم تعمق الحياة فى نفوسهم أثراً من آثارها الخالدة .

استجاب النوم لجسد مثخن بالآلام ، وحملنى البساط السحرى إلى عالم الأحلام ، فرأيتنى وقد اشتدت الأزمة وطفح الكيل . وضاقت حلقة التطويق الفرنسى على المغرب ، واستعد القادة العسكريون لعزل الملك ، ودبروا المؤامرة مستعينين بالعملاء والذين يقتاتون من بطون أمهاتهم . وأصبحت بلادى على شفا الهاوية ، إن أقدمت وقعت ، وإن تأخرت زلت فانحدرت إلى قعر سحيق .

كان الملك فى المقدمة . وقد قصت أجنحته . واعتقل مستشاروه وأعضاء الهيئة الذين كانوا يدبرون معه أمر استقلال المغرب ، وبقى هو رأساً لهذا الجسد النامى المتحرك المنفعل الذى يحاول أن يتملص من الأسر . وأن يثور فى وجه الطغيان . وأن يقتنص الحرية والكرامة . وأن يرمى بالدخلاء إلى البحر من حيث أتوا كان شعباً أبيًّا . يملك القوة على ممارسة الحياة . ولكنه لا يملك الصبر على ذل أو هزيمة . فانتفض ، يريد أن يتحرر . وانطلق يرتاد دروب الحرية يحاول أن يجعل منها ممرات نافذة . وطرق الأبواب بسواعد قوية وقلوب مفعمة باليقين . لم يرهبه طغيان الاستعمار . ولم يثنه تهديد الدخلاء . ولم توهن من عزيمته العزلة التى فرضت عليه . ولا قطّع الحبل الذى كان يربط بينه وبين الملك .

وكنا بضعة نفر نحاول أن نصل الجسر المحطم . وأن نقهر العزلة التى فرضت على الملك وعلى الشعب . فكنا كشمعة هزيلة تضىء فى ظلمات عميقة . ولكنها تضىء . وترسم الطريق ، وتلتقى من خلال الإرادات ، وتهتدى على شعلتها الباهتة العزائم .

وكنا على قلة عددنا نحاول أن نصنع المعجزة نجمع فلول الاستقلاليين فى كل مكان فنشد من عزيمتهم ونوجه إرادتهم . وننظم العمل معهم فى تنسيق محكم حتى لا تبعثر الفتنة القوى الصغيرة التى بقيت بين أيدينا ، وكان من حسن حظ هذه المعجزة أن دفعة الشر لم تفقد المواطنين صوابهم ، وإنما زادتهم أملاً فى الفوز وعزماً على التضحية . ولذلك كانت الأرض

الطيبة ما تزال تنبض بالخير والنماء . فالتفت حول الشمعة الهزيلة إرادة الشرق بالغرب والشمال بالجنوب . وكان الكل على موعد يوم تمتد الأيدى الأثيمة إلى الرأس الذى بقى حيًّا يفكر ويعمل وتتمثل فيه صلابة شعبه وإيمان أمته ويقظة مواطنيه وحرصهم على أن يحافظ على كرامة الوطن ومستقبل المواطنين .

وعادت بى الأحلام إلى اجتماعاتنا الصغيرة فى الضيعة المهجورة . . وإلى اجتماعاتنا فى الرباط والدار البيضاء وفاس لتنظيم العمل الإيجابى . وتذكرت الاستقلالى الوجدى الذى قاد وفداً من وجدة يتطوع للعمل . ونتحدث إلى الوفد فى مكان قصى ، ويعد الوفد بأن سيكون فى المقدمة .

وعادت بى الذاكرة إلى مفتش الشرطة الذى كان يترصد عودتنا من الدار البيضاء . ثم كنت معه على موعد يوم طرق بابى مع وفد من المفتشين يوم اعتقالى .

وتذكرت فيمن تذكرت الرجل الطويل العريض الحليق الرأس الباسم الثغر الأعرج الذى طرق الباب ونحن فى اجتماع سرى . ودخل وكأنه على موعد معنا لهذا الاجتماع . فسحب كرسيًّا وجلس ونظر أحدنا إلى الآخر ، إننا نعرفه ولكن هل نتحدث إليه فيما يهم موضوعنا ؟ وابتدأ أحدنا وهو أكثر معرفة به ليطرد الصمت المخيم وهو يقدمه إلينا :

ـ الأخ إبراهيم الجزار من الإخوان العاملين فى الدار البيضاء .

واتسعت الابتسامة على عارضى الأخ إبراهيم وهو يقول

– ماذا قررتم أيها الإخوان . . . ؟

– قررنا أن نقوم بعمل إيجابى إذا أصبح الملك فى خطر

وانتفض الأخ إبراهيم واقفاً

– السلام عليكم... نحن إذن على موعد مع العمل الإيجابى . .

وانطلقت بى الذاكرة إلى رنات قوية من هاتف مزعج وكأنها تحمل إنذارا . وانبرى أحدنا – ونحن فى اجتماع سرى – إلى السماعة .

– إن وجدة تخاطبكم .

وانطلق صوت آخر من الطرف الثانى يعلن :

– أنا فلان ابتدأنا عملنا . وكان الضحايا ستة . . والمعركة الآن فى أوجها . .

وهتفنا فى صوت واحد :

– استمروا ولكم النصر

وعادت بى الذاكرة إلى جلسة خاصة مع فدائى تطوع لإنفاذ الحكم فى الكلاوى . واقترح أن يدخل حفلا يقام « للقواد المتمردين » كخادم . وهناك يجهز على غريمه . ولكن الرجل فشل أو أنه لم يجد الجو ملائماً .

ووقف بى البساط السحرى عند يوم الهزيمة . يوم ٢٠ غشت والمذياع يحمل النبأ المفجع والشعب فى سكرة الطير الذبيح ووقفت أطل من النافذة فمرت مجموعة من ركاب الخيل أتى بهم من البادية لمحاصرة الملك واحتلال الرباط . والمهزلة كانت على قدر صانيعها .

وعاد البساط السحرى يجتاز بى آفاق المستقبل : عاد الملك واستقل المغرب . وانطلق الشعب من ربقة القيد إلى عالم الحرية . ونحن اليوم نعيش أسعد أيامنا مع الشعب المبتهج .

وأيقظت أذنى دقات رتيبة . رتيبة عنيفة . إنه حديد حذاء الحارس الليلى يطوف بسطح السجن... تنبهت على وقع الدقات الرتيبة فإذا بى فى زنزانتى رقم ٢٤

١٧

إنه صباحى الأول فى زنزانة لا أدرى كم من أصباح ستتردّد علىّ وأنا أفتح عيبى بين جدرانها الأربعة ضوء باهت هذا الذى يبصبص من كوة سقف الزنزانة . إنه كل حظنا من نور ومن هواء . . لو اقتسمناه ثلاثتنا لما ناب كلاً منا ما يجلو عن بصره حجب الظلام . ومع ذلك فيخيل إلى أننا فى اللحظات الأولى من النهار . ليست معنا ساعة تهدينا إلى قسائم الزمان ، وهل بنا حاجة إلى أن نعرف للزمن حدوداً وساعات ؟! إن كل حظنا من دنيانا زنزانة ضاقت عن أن تكون لها أبعاد ، وكل عملنا ان نقبع بين جدرانها ننتظر الحكم ثم ما بعد الحكم من شهور أو سنوات تشل فيها حريتنا عن الانطلاق وإرادتنا عن العمل .

وذلك هو العقاب البليد الذى ما يزال الإنسان يؤمن به رغم ما انفتح له من آفاق لفهم النفس الإنسانية .

إن الهدوء ما يزال يغمر السجن إلا هذه النقرات القوية التى يحدثها حذاء الحارس المصفح . وهو يخطو خطواته الرتيبة على سطح الزنزانات . أو إن السجن يضج بالحركة ولكن الأبواب الموصدة تحجب سمعنا عن أن يسترق أصوات الآخرين وحركاتهم !

هو صباح جديد فى عالم جديد لا مجال فيه للتكهن ، فأنا حيث

أنا وسأظل محجوباً عما وراء الجدران فى عالمى الضيق . وليكن الصباح فى بدايته أو نهايته فلن يغير من وضعى شيئاً

وتلفت يمنة ويسرة فوجدت زميلىّ ما يزالان يغطان فى نومهما ويخيل إلى أنهما سهرا سهرة طويلة شاقة مع أحلامهما . وقد استطاب جنباهما فراشهما الوثير الجديد هنيئاً لهما بنومهما الهنىء . إلا أن يكون على حساب نوم الليل البهيم . فليالى السجن طويلة متعبة شاقة .

ودارت عيناى فى الزنزانة أبحث عن باب حمامى . فإن بى حاجة إلى حمام أتخلص فيه من فضلاتى وأتعاب نومى . وأحلق ذقنى الطويلة التى أعفيت منذ ثلاثة أيام فبدأت تستفيض وتتحلق وجهى على قلة نشاطها وضآلة شعراتها . ثم أخذت أترقب كأس القهوة الساخن اللذيذ الذى يطير النوم من أعصابى ويجعلنى كل صباح صالحاً للعمل .

أما الحمام فقد كان أقرب إلىّ من حمام دارى . وكنت قد اكتشفته لأول مرة عند ما أحسست بالحاجة إليه : ثقبة واسعة على دكة صغيرة قليلة الارتفاع . فوقها صنبور ماء . إنه المغسل والمرحاض والمتوضأ والحمام وكل ما يحتاج إلى ماء أو نظافة . وأما أدوات الحلاقة فقد افتقدتها ولكنى عرفت فيما بعد أنها مما تمنعه قوانين السجن ، فلتظل ذقنى حيث هى ، ومرحباً بوقار اللحى .

مرحاض مكشوف داخل زنزانة يسكنها ثلاثة أصدقاء . . .

مشكلة اجتماعية تواجه السجين أول ما يواجه من مشاكل السجن .

كيف يتخلص من إلحاح الحاجة ولا مكان غير زنزانة ضيقة يسكنها ثلاثة أفراد ؟ أية حركة ستطير النوم من عيون الأصدقاء . . . الليل . . ظلام ساتر للعيون ولكنه لا يحجب الآذان مشكلة سيحلها الزمان، ولننتظر حتى يحلها الزمان .

صحيفتى الصباحية هاته التى أبحث عنها كلما فتحت عينى لأعرف آخر الأنباء عن حياة الشعب . وآخر تصرفات إدارة الحماية . ومذياعى هذا الذى أفتح فمه فينطق بآخر ما لديه من أنباء وقرارات . كل ذلك حجبه عنى ظلام السجن ليسلك بى حياة جديدة لا حمام فيها ولا قهوة ولا صحيفة ولا مذياع

ماذا أعمل ؟ بأى عمل ابتدئ يومى ؟

لا شىء غير الجلوس فى بلادة أجتر أفكارى . وأتوقع صحوة صديقى لأبادلهما حديثاً أغلب الظن أنه سيكون تافهاً إن لم يكن مملاً . فأحاديث السجن لا آفاق لها تستمد ضيقها من ضيق الزنزانة وضيق أفق سكانها الذين لا يقرؤون ولا يعيشون إلا فى نطاق ضيق .

ساد السكون من حولى وهو سكون مقلق لا ترتاح إليه النفس كما ترتاح عادة إلى سكون يعقب ضجة . فالهدوء التلقائى الدائم يبعث الملل فى الإنسان الذى تعود الحركة ثم هو سكون بالإكراه . والأشياء التى تفقد حرية العمل بها لا ترتاح إليها . ولو كانت مما يبعث الراحة . وسكون الصباح وهدوءه يكون منعشاً لذيذاً لأنك تكشف فيه بدء الحركة وتعيش

لحظة بداية الحياة فتنتعش لصيحة الديك الأولى وتستبشر نفسك بالكلمة الأولى تسمعها صباح الخير . وتأنس لوقع الخطوات الأولى فى الشارع الهادئ الفارغ فتشعر بها مثل مشاعرك لانتفاضات الصبح الأولى ولانطلاق تباشير الضياء بلونها الفضى الساحر تطارد مخلفات الليل البهيم . ولكنك فى الزنزانة تفتقد بدء الحياة لأن الجدران الأربعة تفصلك عن كل حياة . ومن ثم يكون هذا الهدوء أدعى إلى الملل وأكثر إمعاناً فى معنى السجن

وجلست مع ذلك فى فراشى أحدق فى الأركان الأربعة وكأنها شىء يستحق التحديق . وشبكت يدى وأخذت ألولب إبهامى فى حركة لاتشك فى أنها عصبية .

وحاولت أن أخرج بفكرى من عالم السدود . ولكنه كان يرتد إلى سريعاً ليضعنى كلياً فى زنزانتى . حاولت أن أنهض ولكنى كنت مضطراً أن أدوس بقدمى أحد رفيقى ففضلت راحته على راحتى . وكان أن عدت إلى واقعى . وأسلمت نفسى إلى السجن وتلك الخطوة الأولى فى المران النفسى الشاق الذى كان على أن أجتازه طول المدة التى قضيتها فى السجن

مر نحو من ساعتين قضيتهما وحيداً فى عالمى ، ولم ينقذنى من هذه الوحدة إلا فرقعات عنيفة ترددت أصداؤها فى العنابر والأبهاء والزنزانات ، إنها المفاتيح تفرقع فى البوابات الضخمة العنيدة ليبدأ موظفو

السجن وحراسه عملهم النهارى ثم تتلوها فرقعات أخرى فى أبواب العنابر والزنزانات ونداءات عنيفة صارمة ممدودة

« لابيل . . لابيل . . . » .

خرج السجن من صمته الذى كنت تحسبه أبدياً وانطلق كعفريت خرج من قمقمه فى عالم ثائر من الحركة والضوضاء فرقعات تتلوها نداءات وأصوات متحكمة وكلمات مرذولة تنطلق من هنا وهناك .

استيقظ صديقاى على صوت الضجة . ونطق أحدهما وهو المجرب القديم : لابيل . وتجربتى القديمة جعلتنى لا أندهش للكلمة، ولكن الزميل الثالث زوى بين حاجبيه مستفهماً

– لابيل يعنى حساب المساجين ... استعد . فسيأتى دورنا .

– ومن سيحسبنا ؟

–إنه « السورفيان » . والحساب هنا يتطلب أن تقف احتراماً لسعادته .

ونطقنا جميعاً فى صوت واحد

– لا . . . لن نقف يجب أن يشعر بأننا غير أولئك .

وأنهت حديثنا فرقعة مفتاح فى مزلاج الزنزانة وانطلق من الباب شابٌ قصير القامة صبوح الوجه حاد النظرات عنيف التقاسيم يطل الحقد من عينيه الجميلتين ! واكفهر وجهه وهو ينظر إلينا نظرة احتقار . وتشاغلنا بترتيب فرشنا ، وتعمدنا إلا ننظر إليه بعد أن صبحنا بوجهه العبوس ولم يزد على أن نطق فى شبه همس آن ، دو . طروا .

واندفع الباب يصطك اصطكاكاً عنيفاً

قال الصديق المجرب

— إنه حانق لأننا لم نقف لتحيته

— سيحنق اليوم وغداً ثم يصبح عدم قيامنا عادة مألوفة لدى سعادته.

— دوره اليوم فى حراستنا وسنقضى معه يوماً أسود .

— ليكن أبيض أو أسود فليس هناك أكثر من السجن. ولكنا منذ اليوم سنضع قواعد لسلوكنا مع هؤلاء : لن نقف احتراماً لأحد ولن نحيَ إلا رداً على تحية . إنه يحسبنا كما تحسب البهائم فى الحظائر . ونحن بالنسبة إليه رقم يكون العدد الحقيقى الذى تعانقت بوابات السجن على حسابه . فيجب أن يكون بالنسبة إلينا كحارس للحظائر لا أقل ولا أكثر

١٨

الزنزانة معناها السجن الانفرادى فقد وضع مهندس السجون مخططاً لتكون مأوى لسجين منفرد وبنى القسم الخاص بالأوربيين على شكل زنزانات أما الأقسام الخاصة بالأهلين — أو « ليزانديجين » كما يسمونهم — فقد بنيت فيها عنابر كبيرة تسع الثلاثين والأربعين . ولكنها فى أيام اعتقال الوطنيين كانت تسع الثمانين ثم تقول هل من مزيد! وبما أن السادة الأوربيين كانوا من القلة بحيث يكاد السجن يخلو منهم . فإن كثرة الطلب كانت تدفع بإدارة السجن أن تسكن الوطنيين المسجونين على ذمة التحقيق فى القسم الأوربى قسم الزنزانات .

ولم تكن تنوب السجين منا زنزانة خاصة . ولهذا كانت الغرفة التى تسع واحداً تتكرم فتستضيف الثلاثة والأربعة والخمسة .

وكان ذلك فى الحقيقة نقمة فى طيها نعمة . فلم يكن أحدنا بمستطيع أن يتحمل السجن الانفرادى مع ما فيه من عزلة عن دنيا الناس والأحداث والفكر . لا أحد ولا حدث ولا كتاب ولا صوت إنسان يخرج نفسك عن الصمت الرهيب الذى تفرضه عليك الزنزانة كانت عشرة الثلاثة أو الأربعة رغم ضيق المكان وضيق الأفق وعدم تجدد الأشخاص والأفكار . تحطم نطاق العزلة وتنتزعك من محنة الانفراد . التى تضاعف

من آلام السجن ، وتحل من عقدة لسانك فتعبر عما تجتره من أفكار وما يتردد فى ذهنك من مشاعر ، ثم هى تخرق نطاق الصمت المفروض على أذنك فتأنس بصوت الإنسان . والصوت إيناس ومتعة لا يدركها إلا الذين فرض عليهم حصار فى سجن أو متاهة أو صحراء . وكثيراً ما ينعم الإنسان بصوته فيتحدث إلى نفسه جهراً ، أو يفكر جهراً حتى لا تحرم أذنه متعة الحياة ، وحياة الأذن صوت ناعم — أو خشن — يخترق تلافيفها ويشعرها بنعمة الإحساس .

ومن أجل ذلك ما كاد الحارس يقفل وراءه باب الزنزانة بعنف حتى بدأنا ثلاثتنا نتحدث وفى شوق إلى الحديث كما لو كنا لم نبت معاً فى زنزانة واحدة . وكان تدبير حياة كل يوم موضوع حديث لا ينقطع ، ولعله الحديث الشيق الدائم عند كل المساجين .

— ماذا سنأكل ؟

ألقى أحدنا هذا السؤال ، وهو تعبير عن نفس الإحساس الذى شعرت به وأنا أهفو إلى قهوة الصباح .

قال الصديق المجرب ، وهو يمزج حديثه بلهجة فكهة فيها نغمة سخرية

— ستكرمك إدارة السجن بعد قليل بخبزة خشنة الملمس ، جافة الطبع ، سمراء اللون تدافع عن نفسها فتعلمك الاقتصاد ، وتمرنك على التقشف ، وأنت بعد ذلك مخير بين أن تأكلها فى صباحك أو توفر منها

لغدائك وعشائك . . .

ـ هل هى كل طعامنا فى يومنا ؟

ـ لا تستعجل ، فأنت مدعو إلى الغداء على مائدة إدارة السجن وستقدم لك حساء من خضروماء . وقائمة الطعام فى الغذاء لاتفترق عنها فى المساء...فاحرص على أن تقتصد من خبزك لينفعك فى غدائك وعشائك...

وكادت ثائرة الصديق الغر أن تثور ، ولكنا صرفنا غيظه بضحكة مدوية رددت أصداءها جدران الزنزانة المطبقة ، وجارانا فى الضحك ، ولكنه عبر عن ذات نفسه :

ـ أنا لا أطيق ... لا أستطيع ... سأطلب الأكل من منزلى، ولتنعم إدارة السجن (بكاملتها) وخبزها وحسائها

وقطعت حديثنا فرقعة مزلاج الباب . ومن وراء الحارس أطل وجه صديق يفتر ثغره عن ابتسامة سعيدة ويحمل بين يديه لفافة ، وفسح الحارس له الطريق فدخل وهو يحيينا :

ـ ها أنتم وصلتم . . . كنا فى انتظاركم فقد علمنا من القادمين من مركز الشرطة أنكم هناك . . . كيف كانت معاملتكم ؟

قلت ـ ضاحكاً ـ وأنا أشير بيدى إلى وسائل العنف :

ـ أسوأ معاملة . . .

قال ساخراً

ـ آثار العنف بادية فى وجوهكم . . . ما هى أحوال البلد ؟

– أسوأ حال ، فقد أكل الناس الخوف ، وفزعوا من البطش وأصبحوا يتهافتون على مبايعة الدمية الجديدة ، وكأنهم كانوا معها على ميثاق .

– كان أملنا أكبر من واقع المغرب . . . البادية لم تتحرك ؟

– رأيت بعيني رأسي جموعاً من الفرسان يدخلون العاصمة على « حميرهم » ليعلنوا « ولاء » البادية ، وليهددوا أهل المدن بالعصى

زفر زفرة يأس وقال

– قمنا بواجبنا حتى وقعنا فى القفص . . . أستلم عن فلان وفلان ؟

وذكر اسمى صديقين كانا من جماعتنا

– لقد اعترف أحدهما تحت الضغط بكل شيء ، أما الثانى فلا أدرى عنه شيئاً .

– سئلنا ، ولكنا أنكرنا كل شيء

– المهم أنكم أنقذتم من يد الشرطة ، والسجن دار نعيم بالنسبة لمركز الشرطة

وعادت لوجهه ابتسامته المشرقة وهو يقول : هاكم أولاما تسدون به الرمق .

كانت زيارة الصديق متنفساً لروحى الظمأى إلى الحرية فقد أحسست أن هناك خيطاً ما يزال يربطنى بدنيا الناس ، والسجن مع رفقاء الكفاح فيه نصيب من عالم الحرية حرية التفكير المنطلق على الأقل فلعل أخطر ما فى السجن كبت الفكر عن الانطلاق وإرهاقه بالوحدة ولعل أخطر من ذلك السجن مع المجرمين والخارجين على

القانون . وقد كان الخوف من ذلك يؤرقني كلما أدركت واقعي وعلمت بمصيري إلى السجن . ولهذا كانت زيارة الصديق بمثابة ضمان لتخلصي من هذا الخطر . وكانت بسمته ونحن نستقبله ، ثم وهو يودعنا ، بمثابة تشجيع على تحمل مرائر السجن .

وفرقع المزلاج مرة أخرى وأطل الحارس يدعو الصديق إلى العودة إلى زنزانته . فقد سمح له بزيارتنا لمدة خمس دقائق أصبحت عشراً .

— إلى اللقاء فى الفسحة

— إلى اللقاء

وكانت الفسحة اليومية الأولى فى الصباح لا تعدو خمس عشرة دقيقة . نخرج إليها مجموعة نستنشق هواء تحت سماء مكشوفة . ونقوم بحركات رياضية خوفاً على عضلاتنا أن تتجمد من كثرة الجلوس فى مكان رطب بارد لا هواء فيه ولا نور ولا شمس . وكان مكان الفسحة لا يعدو ثلاثة أمتار مثلثة لا مربعة ، ودخلنا ثلاثتنا ، واندفع باب الفسحة مرة أخرى ليوصد من ورائنا — فى كل خطوة وعند كل ممر باب — وفوجئنا بنحو خمسة وعشرين من الوطنيين كان يضمنا جميعاً جناح الزنزانات : لم نكن نتوقع أنهم جميعاً فى السجن . ولعلهم كانوا يستغربون تأخرنا عن القافلة . ولكن استغرابهم زال عندما علموا بأننا كنا فى سجن آخر سجن مركز الشرطة .

استقبلتنا الوجوه مستبشرة ضاحكة كما يستقبل الكريم ضيفه . ولعل

شعورهم بالأنس كلما وجدوا صديقاً أو رفيق كفاح بجانبهم ، كان يطغى على محنة السجن وألم الحجر على الحرية ، ولم يكن الحديث مقارنة بين الأساليب التى اعتقلوا بها والتهم الموجهة لكل منهم . أسلوب واحد وتهمة واحدة ومصير واحد . إنه انسجام فى المنطق الاستعمارى :

أنت وطنى . . . ؟

إذن فإلى السجن .

١٩

ربع ساعة . . .

ربع ساعة فقط نقضيها فى الراحة ... الراحة من عناء الزنزانة . وفى مكان لا يتعدى الأمتار الثلاثة مثلثة . هو كل حظنا من هواء وشمس ونور.

فى هذا المثلث الضيق الأعطان تقوم أسوار عالية يعلوها حارس يراقب حركات المعتقلين . ولكن الأسوار العالية — من حسن الحظ — لا تمنعك من أن تتطلع إلى رقعة مثلثة من السماء تنعم بزرقتها وانفساح آفاقها وبهاء ألوانها

ونحن فى دنيا الحرية نسير وعيوننا إلى الأرض ، فالأرض بما فيها من حركة وما فيها من صراع تستبد بكل تفكيرنا وبكل أحاسيسنا ، وبكل نشاطنا . ونحن فى دنيانا لا نطمح إلى السماء وقد تمر الأيام والشهور ، فلا نلقى بعيوننا إلى السماء . لا نستجلى بهاءها وجمالها وصراع النور بين سحبها ، وانبثاق الشمس بين ثناياها وانبلاج وجه القمر الصبوح بين نجومها . إننا أرضيون ، الأرض أمنا ، ولكنها فى الوقت نفسه سجننا الكبير ، تنصب لنا شباكاً يغرينا ما فيها من مطامع حتى نصبح فى قبضتها أسراء ، نبذل من دمنا لخدمتها ونتعبد فى محرابها ، وتذل جباهنا ساجدة فى ترابها الخشن الملىء بالوحل . ما تطلع أحد منا إلى السماء يتملى

من بهائها وجمالها إلا عد شاعراً مهووساً ينظر إليه أهل الأرض فى إشفاق وهم يرثون لحاله الأليم .

والسجن يخلصك من هذا التعبد للأرض .

فى ضيق الأفق الأرضى مجال ليرتفع بصرك إلى السماء ولو فى مثلث ضيق تحد منه أسوار عالية ، وفى انصرافك عن دنيا الناس مجال لتطلعك إلى دنيا السماء

وأعتقد أنى لم أر السماء جلية بهية مترعة بالحسن كما رأيتها من خلال المثلث . كانت تصفو حتى لكأنى أكاد أرى وجهى فى صفاء وجهها رغم الأبعاد السحيقة فيما يخيل ناظرى . وكانت ألوانها تتفاعل مع ما فى نفسى من ألوان . زرقتها لا تحكى لوناً معروفاً فى دنيا الأرض ، ولعله مما اختصت به السماء فعجزت كيمياء أهل الأرض عن أن تصنع مثيله . وكانت أحياناً تغلفها السحب فيتجلى فيها هذا الصراع الضوئى الذى يعطى ألوانا فضية زاهية أو سحابية غامقة ، وكانت أحياناً تشع الشمس فى جنباتها فتحسبها ذهبية فاتنة وكانت فى بهائها وجلالها تستبد بناظرى حتى لكأنى أتطلع إلى الحرية بين أحضانها . كانت المتنفس الوحيد الذى أتخلص فيه من عالم السدود والقيود . فأجد فى رحابة صدرها وامتداد آفاقها ما يخلصنى من رقابة السجان وانطباق جدران الزنزانة .

وكان ربع الساعة زاداً لنفسى الحسرى أتملى فيه ما يجعل نفسى متصلة بالسماء طوال ساعات الليل والنهار ، كنت أحياناً أرنو من خلال

النافذة الضيقة المعلقة فى سقف الزنزانة لأقبس ما ينوب ناظرى من سمائى أجده قليلا تافهاً . ومع ذلك فقد كان فيه غناء للنفس الظمأى التى تنتهز كل سبب لتربط أسبابها بالسماء .

كنت أسبح فى عالمها الواسع فكأننى أهيم فى بحر طافح بالصفاء والجمال حتى ينتزعنى مزلاج الباب وهو يتجاوب فى اصطفاقه مع صرخة الحارس

— يالله . . . عودوا إلى زنزاناتكم . فقد انتهى الوقت . . .

وأعود إلى الزنزانة لأجابه الفراغ البليد يكتنف فكرى وحواسى وجسمى.

وكان فى الفسحة الضيقة مجال آخر غير مجال التلذذ بالتطلع إلى السماء كانت مكان التقاء نتصل فيه برفاق الكفاح . وبالذين جرفتهم تيارات الاعتقال . فلم يكن مكانهم فى السجن ولكن مكانهم كان فى دنيا الحرية الذليلة ليأكلوا الطعام ويمشوا فى الأسواق مع ضمائر ميتة وأفكار فارغة

كنا مع رفاق الكفاح ننسق أفكارنا حتى لا نباغت بأسئلة النيابة عندما يحين وقت البحث والمحاكمة . وكنا نفكر فى المستقبل ماذا يجب أن نعمل ؟ كيف ننتصر على قيود السجن لنعود إلى كفاحنا ؟ كيف يمكن أن تواجه البلاد معركة الموت التى فرضت عليها ؟

وكنا مع الذين جرفتهم تيارات الاعتقال فى مركز دراسة لنفسيات الناس كان أحدهم مثلا يكاد يفقد صوابه . فهو يسجن نفسه فى

محنة لا يخلقها إلا هو نفسه . يفكر السجن . . . أنا ممن يعتقل . . . ؟
إنه الظلم ماذا عملت حتى أسجن . . . إذا كنت وطنيًا فأنا
لا أقوم بأى عمل وطنى إذا سجنت أنت أو ذاك ، فقد قمتم بما
تستحقون من أجله السجن أما أنا ؟

ويعود يسأل فى تضرع متى يفرج عنى ؟

كنت أحياناً أجد لذة فى دراسة هذا النموذج البشرى من الذين تعبدتهم الأرض . فلا يجدون لأنفسهم مكاناً فى غيرها . وتعبدهم « روتين» الحياة . فكأنهم خلقوا ليسيروا على خط مستقيم حتى تدركهم النهاية كانوا يعيشون لأنفسهم . وإذا كانت أمتهم فى سجن كبير . فهم على انفصال عن هذه الأمة . يريدون الحرية . ولو كانت حرية الأذل

وكان يغرينا بهم أحياناً شيطان من السخرية فنركبهم من حيث لا يشعرون كان أحدنا يقنعهم بأنهم فى خطر . وأن أحكاماً خطيرة ستصدر عليهم . فإذا بهم يتمرغون فى وحل الجبن يستنجدون ويحاولون أن يقنعونا بأنهم برآء . . . ثم يعودون فيسألون : ولكن متى . . . ؟ متى سيفرج عنا . . . ؟

ثم يعود أحدنا فيفتح لهم آفاق الغفران ليقنعهم بأن ليلتهم آخر ليلة فى السجن . وعليهم أن يستعدوا لمغادرتنا فترتسم على وجوههم بسمات بليدة تصرخ فى وجوهنا هذا هو الحق . ثم يعود شيطان ماكر ليذكرهم بعمل ما . ساهموا فيه أو حضروا فيه . وتنطلق ألسنتهم من عقالها لتبرأ من كل عمل وطنى وتنطلق ضحكات رفاق الكفاح لتتسلى بالعبث

برجولة « رجل » .

ونموذج آخر كان أقوى أعصاباً ، أو هو أقدر على كبح جماح لسانه ، يكاد يتميز من الألم والمحنة ، ولا يجد مجالاً للصبر فى نفسه فيحنى قفاه ليركبه هم وذل ينطق بهما وجهه وحركاته ولكنه يكبح جماح لسانه. إنه يعيش المحنة مع نفسه . وكان يغرينا به أحياناً هذا الصمت المريب فنعده ونمنيه بالإفراج ، ثم نعود فنصور له هول المستقبل وما ينتظر المجموعة الحبيسة . ويحاول أن ينتصر على إغرائنا فيظهر شجاعة كاذبة تنم عن كذبها عيونه الخابية ووجهه الباهت .

وفى غمرة هذه النماذج تجد نموذجاً يتصنع الشجاعة ، ولكن الجبن يتحدث على لسانه بلغة الشجاعة . إن مركباً هائلاً كان يركب هذا النموذج . وكنا فى حاجة إلى إزاحة هذا المركب فنحاول أن نقنع نفسه بما يتحدث به لسانه . وكانت المشكلة تتجلى حينما يعرض على البحث ، فقد كان يخاف من لطمة وكيل النيابة المحقق ، ولذلك اندفع يكذب على نفسه وعلى الناس اتقاء لضربة أو لطمة ، وكان أن أوقعته شجاعته الجبانة فى حكم قاس عامان من السجن . . .

نماذج بشرية لم تكن دنيا الحرية لتتيح لنا التعرف عليها ، فالسجن كان كشافاً تنبعث أنواره على النفوس فتعريها من كل لبوس زائف . كانت تظهر على حقيقتها عارية مفضوحة ، وكانت هذه الحقيقة رائعة مخجلة ، ومع ذلك كانت دراستها لذيذة ممتعة .

٢٠

كانت الأيام متشابهة وكانت الإحساسات على عمقها وتنوع مظاهرها – فى إطارها الضيق – متشابهة فقد كنا فى زنزانة . والسجن كله زنزانة بالنسبة إلينا كنا نغير الزنزانات وفق هوى السجانين وإدارة السجن . ولكنها نمط واحد صبت فى قالب واحد . فسواء بت فى هذه أو تلك فأنت غير واحد فرقاً بين الجدران المظلمة. والسقف المطبق والباب العتيد والنافذة الضيقة والثقب الصغير يتوسط الباب ليتلصص منه السجّانون ويراقبون حركات المسجونين ويضحكون ملء فيهم على الإرادة الحبيسة والجلوس المتبلد والطاقة المقهورة

وكان هذا التشابه يتمثل فى الحركات والأصوات التى تنفذ إلينا من خصاص الباب أو تتلصص من أعمدة الحديد التى تقاطع النافذة الضيقة. كانت مزاليج البوابات تفرقع فى الصباح والمساء وفى كل وقت من ليل أو نهار فلا يكاد يتخطاها إنسان حتى تفرقع مرتين وكأنها تعلن للمسجونين أن بينهم وبين الحرية أبواباً وأبواباً

وكان السجانون يتحدثون بصوتهم الأجش ولغتهم الرديئة وألفاظهم الفاحشة ، فتنفذ كلماتهم إلى أذن كل سجين دون استئذان . فالصمت المطبق الذى يخيم على السجن فى كثير من ساعات النهار والليل يجعل

من الهمسة صرخة . ومن الحديث يجرى بين اثنين حديثاً مذاعاً تعكسه الأسوار الضخمة فى قاعات السجن وأبهائه . وكثيراً ما كنت أعيش مع السجانين فى أحاديثهم الخاصة وسمرهم الليلى حيث يطمئنون إلى أن الأبواب كلها مقفلة . وهم مضطرون كذلك إلى أن يسهروا وحديث السمر رائع لذيذ . وأروع منه أن تنفذ إلى أذنك أحاديث السامرين رغما عنك ودون أن تتاح لك فرصة المساهمة فى هذا الحديث أو تغيير مجراه . أغلبه حديث تافه ولكنه إنسانى تدرس من خلاله نماذج بشرية فى تفكيرها الساذج ، ومعيشتها المتخلفة ومباذلها . ونزقاتها ومغامراتها ، وتطلعها المتواضع إلى الترقية والزيادة فى الأجور والعطلة . ورأيها فى السجن والمسجونين وقصصها عن هذا السجين أو ذاك .

إنها مدرسة تصور لك جانباً من الحياة الحرة داخل السجن فمن خلال نظرتهم إلى السجن والمسجونين تتصور الحياة فى عالم القيود والسدود. ومن حكاياتهم التافهة البسيطة تكون صورة عن هذا العالم الحافل بالحياة المعزول عن الحياة ، الملىء بالنماذج الإنسانية المعزولة عن دنيا الإنسانية . إنه عالم قائم الذات يعيش وسط خضم لجىٍّ من مشاكله وعواطفه ونزعاته وانحرافاته ومن خلال حكايات السجانين تتصور هذه الحياة بكل صخبها وهدوئها وروعتها وروائعها

كنت أعيش مع هؤلاء السجانين فى سمرهم ، وكأنى أجمعهم حولى من خلال ستار ليؤنسوا وحدتى ويقصروا من ليلى الطويل ، ليل

السجن الذى لا ينقضى . إننى أسجنهم لأنعم بالحرية من خلال أحاديثهم. هم سجناء معنا . ولو كانوا سجانين . مكانهم لا يبرحونه . والبوابات المغلقة انطبقت عليهم كما انطبقت علينا ، وحياتهم رهن بيقظتهم وحرصهم وحراستهم وكلنا داخل السجن ولكننا أحرار بالنسبة إليهم . نتصرف فى زنزانتنا كما يحلولنا ، أما هم فيسهرون حتى الصباح فوق سطح السجن أو فى ساحته ، يعانقون بندقياتهم وسلاحهم . تلفحهم الرياح العاتية ، وتبل أجسامهم الأمطار الطوفانية ، ويلف كيانهم البرد القارس والشمس المحرقة

مساكين ! . إنها مهنة . مهنة حراسة المساجين . والدخول إلى السجن بإرادة من أجل لقمة خبز

كثيراً ما كانت تلذ لى أحاديث هؤلاء ، وخاصة حينما يكون الحارسان أحدهما فرنسى ، والآخر مغربى . عقليتان متباعدتان ، ولكن السجن يجمع بينهما . كل منهما يفكر فى مشاكل السجن والمسجونين بعقليته . ولكنهما مع ذلك يتحدثان من خلال منظار واحد ، وكان هذا المنظار يقارب بينهما فيحيل الفرنسى إلى مغربى يعرف عن عادات المغاربة وتقاليدهم ونزعاتهم وأهوائهم كما يعرف المغربى ، ويتحدث فى ذلك حديث الخبير ، ويحيل المغربى إلى فرنسى يفكر فى العقوبات كما يفرضها الفرنسى تفكيراً عادياً ، ويهين مواطنيه كما يهينهم الفرنسى سواء بسواء ، وكثيراً ما يتعلم الفرنسى لغة المغربى ، اللغة الخاصة بالسجن ، وهى لغة فريدة ذات

ألفاظ ومصطلحات خليطة بين الفرنسية المحرفة والعربية المحرفة ، ومع ذلك فهى لغة لا يتفاهم الناس بغيرها .

وكم يلذ لحديث العهد بالسجن أن يسمر مع حارسين مغربى وفرنسى يحاول كل منهما أن يتحدث بلغة الآخر فتسمع لغة مخلوطة طريفة ممتعة خرجت من ظروف بدائية غريبة ، لقد ضمتهما أسوار السجن ، وهما مجبران على الحياة معاً والعمل معاً والحديث معاً . إنهما كعابرى محيط قذفت بهما الأمواج إلى جزيرة نائية غريبة يحاولان أن يتعرفا على الحياة من خلال لغتيهما المتباعدتين .

ولكن بعض هؤلاء كان يتقن العربية إتقانا مدهشاً بلهجتها البدوية الجميلة ، وكان « مرسيل » من بين هؤلاء حتى كنا نسميه « الدكالى » فيضحك ملء شدقيه ، وكانت كلمة « عمى الدكالى » مفتاحاً إلى نفسه فيترك لنا النور لحظات أخرى كيما نكمل عشاءنا .

٢١

كان هؤلاء الحراس يمثلون أنواعاً من البشر فرنسيين وأسبانيين وألمانيين فى الأصل وكورسيكيين ومغاربة ؛ ولكنهم جميعاً يمثلون نموذجاً واحداً للرجل الذى فشل فى حياته . فاختار السجن وسيلة للنجاح . وما أحسب أن رجلاً يستطيع أن ينجح فى ميدان آخر يقبل على السجن ليكسب عن طريقه قوت يومه .

ولكنهم مع ذلك ينفصلون عن واقعهم حينما يدخلون السجن ، فيصبحون ناجحين ومن ذوى السلطة الكاملة المطلقة . وأحسب أنك لو خيرتهم — وهم داخل السجن — بين وظيفتهم تلك ووظيفة أخرى محترمة لفضلوا حراسة السجن على أى عمل آخر .

ما سر هذه الجاذبية فى السجن ؟

الكسوة الرسمية ذات العقد الصفراء اللامعة والحزام الجلدى الصارم ، والمسدس أو البندقية والقبعة الوجيهة ، كل ذلك يحدث تعويضاً نفسياً يدفع الفاشلون ثمنه من عملهم داخل البوابات الضخمة العاتية .

والسلطة . . . ؟

مجتمع السدود والقيود يؤلفه فريقان حاكمون ومحكومون . يعيش فيه الحاكمون ولا عمل لهم إلا الحكم ، ويعيش فيه المحكومون ولا إرادة

لهم غير الطاعة . وحينما يدخل الحاكمون البوابة الكبيرة ينسلخون عن شخصيتهم العادية الفاشلة ليتقمصوا شخصية أخرى : شخصية الحاكمين . والكلمة الأولى التى تصدر عنهم ، وقد تخطوا البوابة أمر أو نهى أو عقاب

عالم حافل بالسلطة ، حافل بالمحكومين تنمحى فيه كل مظاهر الحكم العادل أو الحكم الديموقراطى دستوره الأساسى « السجين لا حق له » . يؤمن الحاكمون بهذا الدستور إيمانهم بالله . ويرفضون تنفيذاً للدستور أن يفكروا فى المحكومين كبشر لهم حقوق وعليهم واجبات ، ومن ثم كانت كلمة « اسكت . . » هى الجواب الذى ينطلق — تلقائياً — من فم كل حاكم ، كجواب على كل كلمة تصدر من كل محكوم .

هذه السلطة المطلقة متعة نفسية ينعم بها حراس السجن . وتعوضهم تعويضاً كاملاً عن فشلهم فى الحياة .

ولكن هذه السلطة لا ترفعهم عن مستوى المحكومين لقد أصبحوا يفكرون مثلهم . بحيلهم ودهائهم وخروجهم على القانون ويتحدثون مثل حديثهم ، بتفاهته وبساطته وجرأته وخروجه عن الوقار والأدب والحشمة . وأصبحوا يتصرفون مثلهم بجاسوسيتهم وتلصصهم ، ولا أخشى أن أقول بإجرامهم وسرقتهم واعتدائهم على الحقوق واختلاسهم لقوت المحكومين السجن يرفعهم عن أوضاعهم فى الحياة حينما يتخطون عتبته ولكنه ينزل بهم إلى أوضاع المحكومين الأسراء بعد أن تنطبق

عليهم البوابات الضخمة .

إنها ديموقراطية الحياة ، مهما حاول الإنسان أن يغير مظهرها فهى هى المتحكمة ، أليس فى ذلك ما يدفعنا إلى تصديق الكلمة المأثورة « كما تكونوا يولى عليكم . . »

ستة أشهر خلف الأبواب السبعة كشفت لى عن نماذج بشرية رائعة من صنف الحاكمين لم أكن لأجدها فى الحياة خارج البوابات ، ولم أكن لأعثر عليها جميعها فى هذه الحديقة الهائلة أنت فى الغابة قد تعثر على أسد أو نمر أو حرباء أو ضبع ، ولكنك فى حديقة الحيوان تعثر عليها جميعاً فى غير تعب ولا خوف ، وتستطيع أن تدرس أخلاقها وطبائعها فى غير ما شقاء ولا محنة .

كان من هؤلاء « البال مال » — كما كنا نسميه — رجل ضخم الجثة — بالطول والعرض — قوى البنية جميل الوجه حيوى الشباب . تحاول أن تدرس نفسيته من وجهه وعينيه فتخطئك الحاسة ، لأنه يستطيع أن يلبس فروة أسد وجلد ثعلب وإهاب ضبع بحسب الأوقات ، وكان رجلا لا مبالياً ، أهدافه قريبة ، وفى سبيل الحصول على رغباته ولذاته يدفع رقبته فى غير إشفاق على نفسه ولا رحمة بمستقبله . وكان جريئاً جرأة المجنون وقحاً فى مجابهته وتحمل مسئوليته . وكان يأخذ الحياة مأخذاً عملياً يصل إلى الحياة من أقرب طريق وأوضحها ، لا صديق له ولا عدو ، يصادق السجناء ويعاديهم ، لا لأنهم سجناء أو محكومون ، ولكن لأنه

يستطيع عن طريقهم أن يصل إلى أهدافه أو لا يصل .

عرفناه أول ما عرفناه أسداً هصوراً يملأ صياحه آفاق السجن وتملأ شتائمه وسبابه آذان المحكومين . وتجلى لنا — فى وجهه الصارم — شديد البأس قوى الشكيمة . فقلنا : إنه شخص يجب الحذر من بطشه . ولكنا مع ذلك أخذنا نفكر فى طريق الوصول إلى قلبه لنحقق أهدافنا عن طريقه . ولم تكن أهدافنا غير بعض الحرية فى زنزانتنا ، وغير اتصالات بسيطة مع سكان هذه الزنزانة أو تلك. وغير إطالة حصة الفسحة فى المثلث الضيق بالنهار أو حصة النور الكهربائى بالليل . وكان هو الآخر يبحث عن وسيلة للوصول إلى أهدافه القريبة عن طريقنا ، فكان أسرع منا إلى تحطيم الحاجز الذى تقيمه شخصيته الظاهرية فكان يصيح صيحة مرعبة على زميل لنا آمراً أو ناهياً ، ثم يعود فى الحين إلى ابتسامة حلوة ليشعرنا بأنه « يمثل » دور الحارس المجد ، وليقول إن الصيحة لم تكن للزميل ، ولكنها مرسلة إلى أذن الرئيس أو المدير تبرهن له عن حزم « البال مال » ونشاطه .

عرفنا سره عن طريق ابتسامته ، فتفاهمنا فى غير عناء . كان يصيح صيحته المرعبة وهو يفتح باب جناح الزنزانات فكنا نعرف أنه فى حاجة إلى « سجائر » البال مال أو إلى أكل ، وكان يفتح باب الزنزانة وهو يصيح فنعرف أنه يرغب فى أن يتيح لنا فرصة الحرية ولو بالشعور بأننا فى زنزانة مفتحة الأبواب ، وكان يأمرنا بالعودة من فسحة الراحة

إلى الزنزانات ، وهو يصيح كما يصيح رعاة البقر فى التكساس ، ولكن يده كانت تشير لنا بالبقاء أطول مدة نرغب فيها ولو على حساب المساجين الآخرين . . .

كنا نستغله أكبر استغلال. وكان يستغلنا أضعاف ما كنا نستغله. قدم لنا مرة أكبر خدمة وأخذ ثمن ذلك غالياً وكاد يؤدى ثمن الثمن حريته ووظيفته :

كنت متهماً بالمشاركة مع صديقين — اعتقلا قبلى — بالمس بأمن الدولة ، لأننا قمنا بنشاط سياسى فى إطار حزب الاستقلال الممنوع وأقر الصديقان تحت الإكراه فى مراكز الشرطة بمكناس ، وكان يدير التحقيق جنرال كبير فى الجيش الفرنسى وحكم عليهما بالسجن سنتين قضيا شطراً منهما فى أحد السجون القاسية . وأنكرت أمام الشرطة القضائية ووكيل النيابة أية صلة سياسية بينى وبين الزميلين . ولكن وكيل النيابة قرر استنطاقهما من جديد ، فاستدعيا إلى سجن الرباط ووضع كل منهما فى زنزانة خاصة معزولة كتب على باب كل منهما « سرى معزول » .

علمنا بنبأ قدوم الزميلين وكان علينا أن نتصل بهما رغم السرية والعزل . فهما لا يكادان يعرفان عن التحقيق معنا أى شىء . ولكن دون الوصول إليهما قوانين صارمة يحاكم الخارجون عليها بأقسى العقوبات . . . فكرنا . . . ولكنا لم نهتد لغير « البال مال » فهو الذى يستطيع أن يتحمل

أكبر خطر فى سبيل الوصول إلى المال .

كان ممثلاً بارعاً حينما عرضنا عليه مشروع اجتماع سرى بينى وبين أحد الزميلين ، واستعظم الجريمة . ولكن إشارة واحدة جعلت الابتسامة السحرية تطفر إلى شفتيه . وتواعدنا على موعد بعد الساعة الحادية عشرة ليلا وفتح باب زنزانة فى مثل هذه الساعة أخطر جريمة يمكن أن ترتكب ، ولكن السيد « البال مال » كان أخطر من هذه الجريمة .

فتح الباب وطلب إلى أن أصحبه حافياً ، وأن أكتم أنفاسى حتى لا يشعر أى سجين فى زنزانة ما بأن إنساناً يتحرك . سرت فى ظله وكأنى أقدم على جريمة خطيرة . ولم أكن من الذين ألفوا مثل هذه المغامرات ، ولكن السجن كان مدوسة لى تبيح لى أن أغامر .

كان قد ترك النور عمداً فى زنزانة الزميل ، فلما وصلنا فتح الكوة السرية لأتأكد من الشخص الذى أقصد إليه — كان هو بعينه يتلفع بغطائه ، جالساً يفكر فى المصير الذى ينتظره بعد أن استدعى للبحث من جديد . كان وجهه بادى التعب والخوف والحزن ، بئيساً بؤس الجوع والحرمان وشقاء العمل الذى فرض عليه فى السجن . وكان يترقب مفاجأة خطيرة من بقاء النور مسرجاً على غير عادة السجن .

وفى لمحة البصر فتحت فى سرعة وحذر ، فانتفض الزميل السجين وكأنه فوجئ بخطر يتهدده . عمل فكره بسرعة البرق وكان يتوقع أن زبانية التعذيب قد أتت! مرة أخرى لتسهر معه سهراتها « الممتعة » ، فقد

يكون التحقيق الذى دعى إليه من جديد من جنس التحقيق الذى مر به . . وانتصبت واقفاً أمامه ، فلم يصدق عينيه إذ لم يكن يخطر بباله أنى معه فى سجن واحد .

وفى الدقائق الخمس التى فرضها « البال مال » كنت قد اتفقت مع الزميل على كل مراحل التحقيق ، وعلى كل ما سيقر به وما سينكره .

وكان الثمن الذى طلبه « البال مال » سيارة يقضى بها عطلته متجولاً فى أنحاء المغرب ، ومالاً يوازن به ميزانيته التى لا توازن مطلقاً .

٢٢٠

كانت هناك نماذج أخرى من هذه النماذج البشرية التى تسعى إليك دون أن تسعى إليها ، والتى تقتحم زنزانتك لتجعلك تعيش معها ، تتحدث إليها ، وتتحدث عنها . تتحدث لك نفسها لتدرسها دراسة عميقة ، وهى غير مشفقة وغير مبالية ، لا تشفق على نفسها ، ولا تبالى بالوضع الذى تعيش فيه معك . ولكنها — وقد اجتازت البوابة — تتمتع بالحرية المطلقة التى لا يتمتع بها أى إنسان فى عالم الحرية.

السجن يفتح آفاق الحرية على مصراعيها لأنه مجتمع آخر غير المجتمع الذى يسجننا بين كماشتيه الضخمتين المجتمع الواسع يفرض عليك قيوداً ، هى إرث الإنسان منذ كان إنساناً ، تخلفت على تعاقب السنوات والقرون ، هذبها الإنسان وأضاف إليها ، وأغلب الظن أنه لم يحذف منها . وتضيق هذه الحلقات ثم تضيق لتجعل منى ومنك — ونحن فى عالم الحرية — سجينين : لا نتحدث ولا نسير ، ولا نأكل ولا ننام ، ولا نقرأ ولا نعامل الناس ، بل لا نعامل أنفسنا ، إلا من خلال القيود التى يفرضها السجن . هى قيود ليست مفروضة فى قانون مكتوب ، ولو كانت مكتوبة لهان الأمر على الذين يريدون أن يتخطوها ، وأن يخرقوا بنودها وأن يتحدوها ولكن قوتها أكبر من قوة الكتابة لأن المجتمع

يحميها والمجتمع حريص أشد الحرص، عنيف فى حرصه شديد فى رقابته، يعيش معك ولو أقفلت باب غرفتك دونه. يتلصص من كل نافذة ولو اختفيت وراء زجاجها وخصاصها، يتطلع إليك من حيث تحسب أنك هارب منه، ولكنك تستطيع أن تتخلص منه إذا ما اقتحمت بوابات السجن.

فى هذه البوابات سحر الحرية التى تعوضك عن الحرية التى اغتصبت منك. والذين يصيبهم هذا السحر بمس منه يعبون من حريتهم بملء قوتهم حتى إن نفوسهم تتعرى من النفاق الاجتماعى الذى تركوه خلف البوابات الضخمة.

وهذا التحرر يمس حراس السجن ومديريه بمقدار ما يمس السجناء والمعتقلين، وذلك هو الخيط الجامع بين هؤلاء وأولئك والذى يجعل منهم نزلاء سجن ولو اختلفت وظائفهم فيه.

من هذه النماذج ذلك الحارس الذى استقبلنا بفظاظة وغلظة عند مدخلنا لأول يوم، فقد رأيناه عارى النفس بعد أيام. أصبح يترضانا ولو طمعًا فى علبة سجائر، وكان يخرق قوانين السجن فيفتح الزنزانات نقابل من أهلها من نشاء، ونزور الأصدقاء وكل الوطنيين على العموم لأنه يعرف أن وراء ذلك تعويضًا تافهًا فى واقع الأمر، ولكنه — على تفاهته — يغريه بالمخالفات، وأغلب الظن أنه كان مطمئنًّا، لأنه يعيش فى عالم المخالفات مع زملائه، وكلهم ممن يخالف القانون ويعتدى على الأنظمة.

هذا الشخص الذى كان يحاول أن يظهر قويًّا رأيناه يرجو ويستعطف

أحد زملائنا أن يكتب رقية « حرزاً » لينتصر الفريق الذى يفضله فى مباراة كرة القدم . وقد أفهمه الزميل الذى كتب الرقية أن مفعولها لا يكون قوياً إلا إذا وضعها حارس المرمى فى حذائه تحت مؤخرة قدمه. وما تتبعت القصة حتى نهايتها . ولكنى أحسب أن فريقه خسر المعركة بعد أن أثقل حذاءه بلفة ورق ليس فيها إلا خطوط متقاطعة بشكل بهلوانى .

* * *

تأكد الكثير من الحراس أن زميلهم « البال مال » يستفيد فائدة كبرى من الوطنيين السجناء فتحلبت أشداقهم لهذا الدخل الجديد ، وأصبحوا يتهافتون على حراسة قسم الزنزانات ، وأصبحنا نلقى منهم التحية بعد أن كنا مطالبين بأدائها ، وأصبحنا أصدقاء لهم بعد أن كنا من « الذين لاحق لهم » . وكانت سلة التموين التى نتلقاها من العائلة تخضع لبحث دقيق لا عن الأشياء الممنوعة ولكن عن الأشياء الطريفة التى يطمعون فى أن نؤثرهم بها علينا وأذكر أن أحدهم ، وكان قاسى المظهر شديد البأس . وجد قارورة عطر فى سلتى فآثر نفسه بها دون أن يستشيرنى وإنما تفضل بإخبارى عن طريق زميل آخر بالذى فعل .

وكان نائب رئيس السجن يصطنع الوقار والاستعلاء ، ولا تسمح نفسه أن يتحدث إلى السجناء ، فهو نائب رئيس يتشوف للرياسة ، وقد لا يكون بقى بينه وبينها غير سنوات معدودات . وهو من أجل ذلك رجل يحترمه الحراس والحارس العام ، ولا يبلغ أوامره إلى المسجونين إلا بواسطتهم .

لم نر وجهه منذ استقبلنا فى مكتبه بين البوابات . ولكنه تفضل وزارنا فى الزنزانة . فدهشنا حقًّا لهذا الشرف الكبير الذى دفع بالسيد نائب الرئيس أن يزور قومًا لا يتمتعون « بالأهلية لأن يكون لهم حق» .

حيانا السيد نائب الرئيس تحية ودية . وانفرد بأحدنا يتحدث إليه فى سر حديثاً طويلاً خارج باب الزنزانة طال الحديث . وأخذت الظنون تذهب بنا كل مذهب

قال أحدنا إن مشكلة ما ارتكبها أحد الوطنيين فهو يريد أن يفضى إلينا بالمشكلة عسانا نساعده فى حلها

وقال آخر بل إنه تلقى أوامر جديدة لإحالتنا على سجن آخر أو على إدارة الشرطة للتحقيق من جديد .

وقال ثالث إنه فى حاجة إلى مساعدين إداريين يريد أن يختارهم من جماعتنا فهو لهذا يفاوض لنختار له من بيننا من يتقن الفرنسية ، وتتوافر فيه شروط الأمانة والطاعة

وقال رابع بل إن شكوى قدمت بجماعتنا . وقد رأى السيد نائب الرئيس أن يعالج الأمر عن غير الطرق الرسمية القانونية .

كل تلك ظنون أثبت الواقع أنها كاذبة .

فقد عاد الزميل إلى الزنزانة . وأقفل الباب من ورائه وبدأ يضحك

ــ من أدرك سر هذه المقابلة فله عندى سيجارة . . .

وأشركنا زميلنا فيما راودنا من ظنون . ولكنه ضحك بملء شدقيه :

– مساكين أنتم !! لا تفكرون إلا فى محيطكم الضيق مشاكل السجن ... خصومات ... تحقيق ... تنقلات بين السجون ... لقد أخفقتم جميعاً فى الامتحان . ولى على كل منكم سيجارة . ادفعوا الرهان قبل أن تسمعوا الخبر .

ودفعنا . . .

وعاد الزميل يخبرنا خبر الزيارة الكريمة :

– إن السيد نائب الرئيس يريد منى أن أدفع مائتين وخمسين ألف فرنك

– مائتين وخمسين ألف فرنك . . ؟

– نعم . . . لا تنقص ولا تزيد . . إنه بحاجة إلى عمل تجارى مهم ، وهو لا يملك الآن هذا القدر . وقد رجانى أن أقرضه على أن يرده بعد بضعة شهور لا تعدو سنة .

– وكيف تخلصت منه .

– هو الذى « تخلص » منى فقد أعطيته رسالة إلى والدى ليقرضه قرضاً حسناً لا إثبات فيه ولاحجة .

– أجننت . . . ؟

– لم أجن . ولكنى أشترى راحتى بالمال . لو امتنعت عن الإقراض لاستطاع أن يلفق ضدى تهماً قد تكون خطيرة ، وأنا سجين . والسجين دائما لاحق له . وخير لى ألف مرة أن أدفع المال من أن أهان فى السجن .

٢٣

قدم لنا السجن نماذج أخرى لا تتفق مع هذه النماذج إلا فى الوظيفة . هؤلاء الحراس المواطنون الذين يعيشون فى السجن طيلة يومهم وليالى من لياليهم هم حراس كأولئك، ولكنهم يميزون عنهم تمييزاً عنصرياً. فالحارس المغربى دون الحارس الفرنسى فى الوظيفة والمرتب والعمل ومكان العمل وشكل الكسوة الرسمية والسلاح الذى يحمله .

المغربى يسمى حارساً ، والفرنسى يسمى مراقباً

مرتب الفرنسى أعلى بكثير من مرتب المغربى .

المغربى يشتغل ساعات بالنهار والليل أطول من ساعات الفرنسى ، المغربى تعهد إليه الأعمال الشاقة ، والفرنسى يعفى منها الأول يحرس السجناء فى الأعمال الشاقة بالبادية والطرق ويحرس بالليل والنهار فوق سطح السجن معرضاً للأمطار والشمس والبرد والحر ، ويظل فى ساحة السجن المكشوفة ، والثانى يعفى من كل ذلك . بل إن له غرفة خاصة مفروشة يأوى إليها إذا عسعس الليل تاركاً السجن فى حراسة الحراس .

الحارس يعمل تحت إشراف المراقب الفرنسى

المراقب الفرنسى يلبس كسوة فاخرة وقبعة جميلة مهيبة ويحمل مسدساً حديثاً ، والحارس المغربى يحمل بندقية ويلبس كسوة زرية قد

تكون مما فضل عن المراقب الفرنسى

المراقب الفرنسى يرتقى فى وظيفته حتى يصل إلى رتبة رئيس أو مدير. وعند ذلك يتسلم الإدارة ويعفى من أعمال الحراسة أما الحارس ، فقد يصل إلى رتبة رئيس . ويحمل اللقب « شاف » . ولكنه يظل حارساً يحرس البوابة الكبرى إن كان من ذوى الحظ

وتحدث مفارقات لطيفة بسبب هذا الميز العنصرى. حدث مرة أن كنا فى يوم عيد إسلامى والقانون يمنح حراس السجن عطلة يوم العيد . وفى مثل هذه الحالة تحدث المشكلة . فالمراقبون يرفضون النيابة عن الحراس فى أعمالهم « المزرية » . ولكن إدارة السجن اختارت شاباً جديداً من المراقبين كان أسبانى الأصل أو الجنسية لا أدرى . ولكنه كان راغباً فى أن يكون فرنسى الروح والعمل والعقلية . كان وجهه أشبه بوجه فتاة فى جماله وتقاطيعه وفى قده ونحافته . ولذلك لم يكن يبعث على الخوف . ولم يستطع أن يتقمص شخصية مراقب . وقد اختاره الرئيس لينوب عن الحارس المغربى فى حراسة سطح السجن يوم العيد وقد يكون سبب الاختيار أنه ليس فرنسياً . فهو مرحلة « جنسية » بين المغربى والفرنسى . وترك هذا الاختيار فى نفس الشاب جرحاً عميقاً . إن كرامته لم تذعن لقبول هذا العمل المزرى . ولكنه رضخ لقرار الرئيس على أن يعوض عن عمله المرهق بيومى راحة .

وخرجنا جماعتنا للساحة المثلثة نستريح من عناء الزنزانة . ومن وظيفة

حارس السطح أن يحرس هذه الساحة . أطل علينا . ثم راودته نفسه أن يتخلص من عزلته . فأخذ يتحدث إلينا مخترقًا القانون فالحارس لا يحادث السجين إلا آمراً أو ناهيًا أو معاقبًا أو شاتمًا ووجدناها فرصة لإثارة مكامن نفسه ، فعبر أحدنا عن الاندهاش من كونه يحرس السطح فى لفح الشمس وعتو الرياح .

وانطلق يتحدث لنا عن طائف من الظلم مسه فليس هو من جنس الذين تسند إليهم مهمة كهذه . ولكنى أسبانى الأصل . ولست بعد فرنسيًا

يوم واحد . ثم تعود إلى مكانتك السامية ولكن احذر مرة أخرى أن تقبل هذا الضيم ، فما يليق بشاب مثلك أن يرتقى السطح ليحرس المساجين . . .

هذا الميز العنصرى دفع ببعض الحراس أن يحتالوا ليصبحوا — جنسيًا — فرنسيين ، ولم يطمعوا بالطبع أن ينالوا كل مزايا المراقب الفرنسى ولكن الذى طمعوا فيه هو أن ينالوا مرتبًا يقرب من مرتب المراقب . كان أحد الحراس من مواليد وجدة . ولكنه بذل الجهود ليعتبر جزائرى الجنسية وقد نجح فى جهوده . فتوصل بفارق المرتب منذ التحق بإدارة السجون ، واشترى سيارة قديمة أرهقته تكاليف إصلاحها حتى الإفلاس ، وأخذ يتمنى أن لو بقى « مغربيًا » حتى لا تبطره النعمة .

كان أغلب هؤلاء الحراس يشعرون شعوراً وطنيًا عميقًا ، وكان الذى

يقض مضجعهم أن يحرسوا معتقلين وطنيين ، فكأنهم بذلك كانوا يساهمون فى سجننا وتقييد حريتنا ولم يكونوا يستطيعون التعبير عن مشاعرهم . ولكن الألم الذى يحز فى نفوسهم كان يطفو على وجوههم وعيونهم التى تمتلئ بدموع صامتة . وإذا كنت لا أنسى أولئك الذين كانوا يواسوننا بالكلمة الطيبة . فإنى لن أنسى الرجل الذى كان يبحث عن الكلمة الطيبة فلا يستجيب لسانه . ويظل ينظر إلينا بعيون حجرها الألم ، ووجه غارت الابتسامة فيه : كان ينظر إلينا فى استعطاف وكأنه يرجونا أن نكلفه بعمل يؤديه لنا تكفيراً عما يشعر به من جريمة يرتكبها نحونا .

كان يتحدى القانون ، فينقل رسائلنا إلى العائلة والأصدقاء ، ويأتينا بكل ما نريد من الخارج حتى الصحف .

كان عاجزاً أن يخدمنا أكثر من ذلك ، ولكن القدر لم يحرمه من أمل كان يرجو أن يتحقق فقد أتيحت له الفرصة أن ينقل إلينا أهم خبر سمعناه .

فتحت البوابة الكبيرة فى وجهه فانطلق يعدو وهو يحمل مفاتيح الأبواب السبعة والزنزانات . وصر مزلاج الزنزانة صريراً مزعجاً ، فأفقنا من غفوتنا فى انزعاج . وكان الوقت وقت القيلولة من يوم جمعة . ومع صرير مزلاج الباب تطلعنا جميعاً إلى الوجه الذى سيطل من خلفه ، فقد كنا حريصين على أن نعرف الحارس أو المراقب الذى سيتولى حراستنا .

فمن خلال شخصيته نعرف مبلغ التضييق على حريتنا فى يومنا ذاك .

وأطل وجه عمى بوشعيب ، وذلك هو اسمه ، وثغره يفتر عن ابتسامة عريضة ، وقال وهو يسرع فى كلامه

— ضربوا الحرامى . . قتلوه . .

وأقفل الباب بسرعة مخافة أن يطلع على سره أحد وانصرف .

وسمعنا مزاليج الزنزانات تفتح بسرعة وتقفل بسرعة . . .إنها الكلمة نفسها تنطلق فى كل زنزانة من زنزانات الوطنيين

— ضربوا الحرامى . . قتلوه . .

كلمات انطلقت فى وجداننا تحمل ألف سؤال وسؤال من هو الحرامى ؟ من ضربه ؟ من قتله ؟ أهى المعركة بدأت ؟ أهو الحلم الذى يراود نفوسنا قد بدأ يتحقق ؟

وانطلقت تعليقات الزملاء تفسر الكلمات ، وتراهنوا على التفسير الصحيح ، وذهبت الظنون كل مذهب ولكنها جميعاً كانت تستقر على أن حدثاً هاماً قد حدث وأصبح وجه عمى بوشعيب والكلمة التفسيرية تنطلق من فيه كل أملنا

كنا ننتظر على أحر من الجمر

ولم يطل انتظارنا ، فقد أطل الوجه الصبوح والابتسامة تشع لأول مرة فى عينيه ، ولأول مرة لم تخنه الكلمات

— قتلوه ضربوه . . الحرامى ابن عرفة

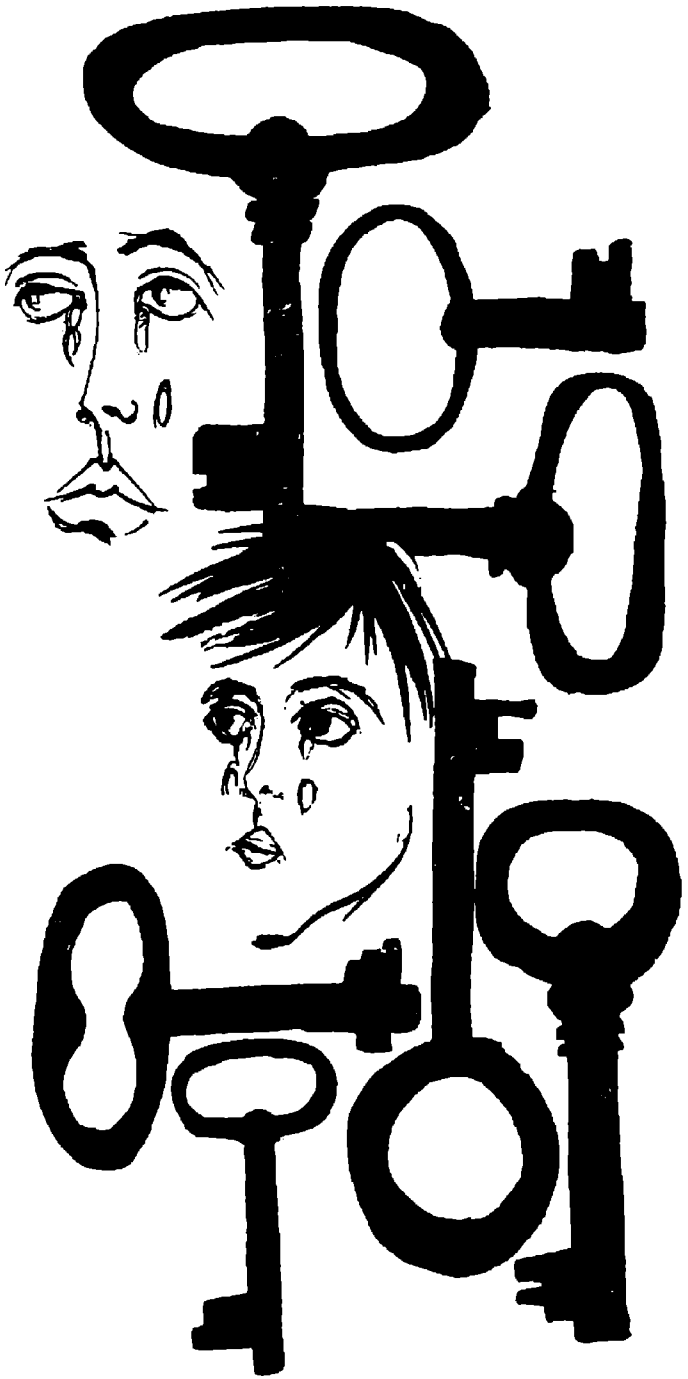

— ابن عرفة . . . ؟

— نعم هو بنفسه . . دهمه بالسيارة مغربى مجاهد . . . أسقطه من فرسه ؛ وهو فى طريقه إلى المسجد ، ونحره بسكين . . .

— قتل . . قتل حقًّا . . . !

وانطلقت صيحات البهجة والإعجاب تحيى المجاهد الذى دهم الحرامى بسيارته وعدنا نسأل

— قتله حقًّا . . ؟ من أين أتيت بالخبر ؟

— المدينة تضج بالأخبار والإذاعة أكدت الخبر . ولو أنها زعمت أن « الحرامى» جرح ولم يمت ولكنها كاذبة . . كاذبة . . قطعًا مات .

وأقفل الباب مرة أخرى ، فقد كان يدرك أن ظروفًا مثل هذه تحتم الحذر . فإدارة السجن ستتلقى أمراً بالتشديد فى الرقابة على الوطنيين .

٢٤

كان النموذج الثانى من هؤلاء الحراس يتمثل فى « المراقبين»

وإذا كان الكثير منهم يعيش لنفسه على هامش الحياة ، فإن بعضهم كان يمثل النزعة الاستعمارية الحقود .

وكنا نحن ميدان التجربة . ومن معاملتهم لنا كنا نستطيع أن نميز بين الحارس الذى يعيش لنفسه والحارس الذى يعيش لنفسه وللسياسة معاً . كان ذلك يظهر على محياهم ونظراتهم وأحاديثهم . وكان أحدهم ، طويل القامة معروق الوجه أزرق العينين حاد النظرات ينظر إلينا فى حقد واحتقار . وكان يتفحصنا بعينيه اللاذعتين وكأنه يحاول أن يكتشف سر جريمة . . . كانت عيناه تقعان على أحدنا فلا تطرف ولا تتحول بل تتسمران فى وقاحة وتحد وكأنهما تقولان ها أنتم الآن بين أيدينا . . .

كنا فى يوم نوبته نشعر بالسجن سجنين فقد كان لا يتساهل فى تطبيق ما يراه قانوناً ، لا نستريح من عناء الزنزانة إلا زمناً محدوداً ، ولا نتمكن من ماء دافئ لنصنع كأس شاى ، ولا يمكن أحدنا من زنزانة فارغة ليقضى وطره بعيداً عن أعين زملائه ، ولا يسمح من سلة التموين إلا بالقدر الضرورى

كنا لا نحتمله بقدر ما كان لا يحتمل النظر إلى وجوهنا ، ولكن

الحكمة التى كان يرددها أكثرنا صبراً واستهانة بالأحداث « النهار القبيح يدوز » كانت تجعلنا نصبر على مكره واحتقاره .

ودارت أيام الأسبوع وكان يوم حراسته يوم ٢٤ ديسمبر يوم عيد يحتفل له المسيحيون وغير المسيحيين على السواء . ويوم يشعر فيه المشتغلون بالغبن والألم ، وكان عمله فى حراستنا يثير فى نفسه الاشمئزاز ، فإذا كان عمله يوم عيد تحول الاشمزاز إلى غثيان . فوجدنا وجهه الكالح فى صباح ذلك اليوم ينطق بالألم الحاقد . ووجدنا خديه الأصفرين ينبضان بالكراهية وضاقت عيناه وراء نظارتيه حتى كأنه يحاول أن يخفى وجوهنا عن نورهما

واحتملنا فاليوم القبيح يدوز . .

وعاد المراقب إلى عمله فى الساعة الثانية ظهراً .

وفرقعت مزاليج البوابات فرقعات عنيفة انتشلتنا من غفوتنا ، وصاح أحدنا

— الساعة الثانية

واستمر جميعنا فى الاستلقاء الكاسل . وسمعنا مزاليج الزنزانات تصطك ، فتلك عادة يفرضها القانون لمراقبة حساب المساجين بين كل فترة وأخرى وفرقعت زنزانتنا فرقعة عنيفة أطارت الكسل من أعصابنا فجلسنا فى مكاننا وقد تسمرت عيوننا على الباب لنلحظ سر هذه الفرقعة العنيفة وكان هو واقفاً وقد تسمر فى مكانه ينبع الحقد من عينيه وكأنه

بقامته المديدة أسد كاسر يحاول أن ينقض . وزاد وجهه المستطيل أصفراراً حتى لمعت خطوط زرقاء فى الخدود الكالحة .

ظل لحظات وهو ينظر وكأنه مرجل يغلى تتطاير شرارات غليانه من تحت نظارتيه .

كان أحدنا يحاول دائما أن يترضى مثل هؤلاء بالكلمة المعسولة

— أهلاً مسيو فور هل أصبت قليلاً من الراحة بعد الغداء؟

أجاب وشفتاه ترتعشان

— نعم ! أصبت راحة . . ! ! أنتم « الإنديجين » نجد معكم الراحة ؟

— ماذا . . ؟ هل أقلقك الجيران بضجيجهم . . ؟

قال وجسمه ينتفض

— ضجيج . . ؟ أنتم تستحقون القتل . ماذا ينتظرون بكم هنا . . لو كان الأمر بيدى لأعدمتكم جميعاً .

ودهشنا فما بلغ به الحقد مرة أن ثار ثورته هذه . . .

وعاد الزميل يترضاه وكأنه يحاول أن يترضى ثوراً فى ميدان مصارعة :

— حينما لا ينام الإنسان بالنهار يحتد مزاجه .

— ننام ؟ مَنْ من الفرنسيين يستطيع أن ينام اليوم نهاره أو ليله؟ لن يغمض لنا جفن حتى نستريح منكم . أنتم القتلة السفاكون . .

وأشرنا إلى الزميل أن ينسحب من المناقشة . ولكن السيد المراقب لم ينسحب . إذ يظهر أنه وجد الفرصة ليشفى غليله . فانتفض وهو يقول :

ـ مالكم صامتون ؟ ألا تدرون ماذا حصل اليوم ؟

واستفز السؤال الزميل المجامل فقال وهو يحاول أن يبعد من المراقب سورة الغضب

ـ ماذا حدث ؟ ليس للإدارة الحق فى أن تمنعك من إجازة العيد . كان من الواجب أن ينوب عنك اليوم أحد الحراس المغاربة كما تنوبون عنهم فى عطلة العيد الإسلامى .

وضاق المراقب مرة أخرى بحوار الصم فقال وهو يصك أسنانه

ـ العيد . . ؟ أنتم الذين تعيشون اليوم فى عيد أما نحن فنعيش فى مأتم . . . كل الفرنسيين يعيشون فى مأتم .

وارتسمت علامات الاستغراب على وجوهنا جميعاً ، وأخذ بعضنا ينظر إلى بعض فى دهشة وقد عقدت الدهشة لسان الزميل المجامل فلاذ بالصمت .

واستمر الحارس

ـ السوق المركزى فى الدار البيضاء . . أتعرفونه ؟ لقد فجروا فيه اليوم قنبلة عنيفة عنيفة جداً . . فجروها فى الوقت الذى كان مزدحماً بروادة الذين يتسوقون للعيد .

ـ قنبلة . . ؟

هكذا صاح الزميل المجامل وقد امتزجت فى نبرات صوته الدهشة بالفرح .

— نعم قنبلة قوية المفعول . . ثمانية من القتلى وسبعة عشر جريحًا .

وضاق صدره بحكاية التفاصيل فأردف

— قتلة مجرمون أصدقاؤكم هؤلاء الذين تركتموهم وراءكم يخربون ويقتلون الناس فى الأسواق .

وصحت أحاول أن أستطلعه الأخبار

— من قال لك إنهم مغاربة ؟ يجوز أن يكون الانفجار غير متعمد .

قال وهو يسخر

— يجوز يجوز أن يكون هتلر قد ألقاها قنبلة من السماء ! ! لم يعتقلوا ولكنهم سيعتقلون . إنهم مغاربة . . آه لو أتوا بهم إلى هذا السجن . . سننتقم منهم . ومنكم الذين تركتموهم وراءكم .

قال الصديق المجامل وهو يخفف من لوعة الحارس

— لا تقلق فقد يكون عدد الضحايا مبالغًا فيه ثم إن المغاربة لا يمكن أن يقوموا بعمل كهذا

— قلت لك إنهم هم وسننتقم منذ اليوم . . . سترون فينا رجالاً آخرين . وستصدر ضدكم أحكام قاسية . فأنتم قتلة الفرنسيين

وانطلق يهدر وقد صفق الباب صفقة قوية عنيفة أتاحت لنا فرصة الانطلاق من سجن وجهه الكالح . فدوت فى أعماق الزنزانة ضحكة قوية انطلقت بها أربع حناجر

واندفعنا نعلق إن أوار المعركة قد اشتد . وقد بدأت المعركة تتجه

نحو المراكز الستراتيجية . . إن يوم الخلاص قد قرب لقد عرف المواطنون طريقهم . . شجاعة نادرة اقتحام السوق المركزى فى ليلة عيد

وردنا إلى واقعنا صوت عنيف انطلقت به حنجرة الحارس فى زنزانة أخرى وهو يصيح فى وجه مواطن مغربى كحيوان جريح .

ـ اسكت ياحمار . . اسكت يا . . . اسكت يا قاتل .

٢٥

— ٢٥٩٢ بارلوار . . . ٢٥٩٢ بارلوار . . .

كذلك كان ينادى « البلانطو » عصر كل جمعة ، ويتكرر النداء ولا يختلف غير الرقم ، وأحياناً كان يتعطف « الحارس » فيقبل من عجوز لا تعرف الرقم أو بدوى نسى الورقة فى الخيمة فينادى بالاسم الكامل :

— محمد بن محمد بى على . . بارلوار . .

وكلمة « بارلوار » لها مفعولها السحرى عند جميع النزلاء . . فهى تعنى أن قلباً ما يزال يهفو بالود والرحمة جاء ليسأل عن السجين وليستطلع خبره . . وهى تعنى أن خبراً ما خيراً أو شراً ، سيفاجئ السجين ، وهى تعنى أن سلة من الطيبات ستمتد بها الأيدى الرحيمة من خلف قضبان الحديد لينعم بها السجين ليلته وبعض يومه . ولذلك لا تكاد تتردد كلمة « بارلوار » حتى تلمس قلوب السجناء بمفعولها السحرى فترتعش وتهفو وتتطلع ، وتتسمع الآذان إلى الأرقام . والأميون هم الآخرون يحفظون أرقامهم من كثرة ما يرددها الحراس وهم يحملون لوحاتهم على صدورهم فالرقم اسمهم الحقيقى منذ أن اجتازوا عتبة السجن .

والسعيد من سمع رقمه فجرى إلى غرفة المقابلة ليجد زوجة أو ابناً أو أماً أو أباً .

وكان حديث البارلوار عندنا نحن المسجونين على ذمة التحقيق يبدأ منذ الصباح ، فقد كانت المقابلة مرهونة بإذن خاص من المحكمة ، وهى قد تأذن مرة فى الأسبوع فى غير يوم الجمعة كنا نعرف يوم الملاقاة لأن زوجاتنا أو أخواتنا نظّمْن بينهن الأيام حتى يتمكن كل منا من أخبار الخارج كل يوم ، وكانت الآمال مع ذلك تداعبنا فى أن تكون هذه المقابلة يوميًّا لأنها كانت تنقذنا ، لبضع لحظات ، من الزنزانة الملعونة ، ولأنها كانت تصلنا ، لبضع لحظات ، بخارج السجن ، ولأنها كانت تتيح لنا ، لبضع لحظات ، أن ننعم بالنظر والحديث إلى زوجاتنا وأطفالنا وأمهاتنا ولو خلف قضبان الحديد المتشابكة .

كان أحدنا يشيع من الزنزانة بصيحات الفرح وهو يدلف إلى مقابلة زوجه أو ابنه ، وكان يستقبل بالابتهاج وهو يعود من « البارلوار » ، ثم تنهال عليه الأسئلة ، وكأنه عاد من دنيا الناس ، وويل له إذا لم يحمل أنباء مثيرة أو مبشرة أو رائعة .

كنت — فيما أحسب — أكثر الزملاء صبراً وأقواهم احتمالاً ، ولكنى كنت أفقد صبرى إذا تأخرت زوجى عن زيارتى فى الساعة المحددة من اليوم المحدد . . كنت أحمل همًّا لا أطيقه يبدأ ركوبى قبل الموعد بيومين ، حتى إذا ما اقتربت الساعة المحددة وجدت صبرى قد انهار ووجدت غمًّا يملأ دنياى وكأن شقاء الحياة كلها يغمر قلبى . وكنت حينما أسمع اسمى أو رقمى مقرونًا بكلمة « بارلوار » أخطو عتبة الزنزانة فى اضطراب

لا تقوى ركبتاى على كتمانه مهما تجلدت، وأذرع الممر فى غير عجلة، ولكنى مهما أبطأت خيل إلى أننى أسرع ، ذلك ما أحاول كتمانه ، كنت كالسكران الذى يحاول أن يخفى سكره ، ولكنه يفضح نفسه حينما يقف لتثبت الأرض من تحت أقدامه ، وكنت أقطع الطريق فى غير صبر حتى إذا وصلت إلى باب غرفة المقابلة وجدته مقفلاً فى وجهى ، فإن طائفة أخرى من المسجونين — قد تبلغ العشرة تأخذ حظها من المقابلة، ويُفتح الباب ويؤذن لعشرة آخرين أكون من بينهم .

غرفة ضيقة لا نافذة لها غير بابين يتصل أحدهما بساحة السجن ويتصل الآخر بما بين البوابتين الكبيرتين ، يقوم بين البابين قفص حديدى عتيد يصل أرض الغرفة بسمائها ، وفى وسط القفص يقف الحارس ليراقب كل كلمة تقال من الجانبين .

كنت أدخل الغرفة فتطفو الابتسامة على وجه زوجتى ، وهى التى غالبًا ما كانت تزورنى ... إنها ابتسامة التشجيع كانت تنطلق من عقال الآلام والوحشة والوحدة لترد إلى عالم ما بيننا ، فى لحظاته القصيرة ، البهجة والأمل .. كنت أسرع فى القول ملمحًا أو مصرحًا سائلا عن الأهل والأصدقاء وحالة الوطن . وكانت تسرع فى القول مجيبة متحدية رقابة المراقب منتهزة فرصة جهله ببعض الكلمات العربية لتفضى بما لديها من معلومات .

كنت قد اشتقت إلى طفلى الصغير فطلبت إليها أن تصحبه فى المرة

القادمة . وجاء ليقابل « بابا » فى السجن ، وفى ذهنه الصغير ألف سؤال عن السجن . . ولم السجن . . ؟ ولكن ذهنه الصغير لم يكن يتصور أن يرى بابا دون أن يستطيع الاقتراب منه أو لمسه أو تقبيله . ولم يكن يتصور أنه لن يستطيع أن يطلب إليه حلوى ، أو أن يغمره بمداعباته كما كان يفعل عادة . ووقف أمامى — وبيننا حاجزان يكونان القفص العتيد — وتطلع إلى بعينيه المليئتين بالآلام والآمال ، وطلب إلى أن أقترب . . أن أتخطى الحاجزين . . أن أعود معه إلى المنزل كما كان يأمل . . وظلت طلباته حائرة بين ذهنه ولسانه . ولكنه سرعان ما ارتد فكره إلى الواقع فرفع عينين مليئتين بالدموع إلى وجه الحارس الواقف بيننا ببذلته الرسمية وقبعته التى تحمل معنى السلطة والسيطرة والأمر .

وعاد يقول

— ولكن متى تأتى عندنا يا بابا ؟

— قريبًا . . قريبًا يا بنى . . عند ما يتنفس الصبح وتشرق الشمس .

وأصبح معنى إشراق الشمس وتنفس الصبح يحمل معنى الأمل فى نفسه منذ ذلك اليوم .

وتكررت زيارات الطفل مع أمه ، ولم تشرق الشمس ولم يتنفس الصبح ، ووقف أمامى مرة مبهوتًا يائسًا مشفقًا أن يحول بينى وبينه قفص ورجل ، وانطلق يحاول أن يتكلم فخانته شجاعته وانفجر باكيًا ومنذ ذلك اليوم أصبح عييًّا يتمتم ويتلعثم . . ولم يبرأ لسانه من عثرته العصبية إلا بعد

شهور انمحى فيها من ذاكرته الصغيرة القفص والحارس والغرفة المظلمة التى كانت تقبض الأنفاس .

وفى غرفة المقابلة واجهتنى زوجتى مرة وقد انعقد لسانها واختفت بسمة الأمل من ثغرها .

ـ ما وراءك ؟ إن خبراً ما يكمن فى صدرك ؟

ـ لا شىء . . لا شىء . . غير أن الأمور لا تسير سيراً حسناً . .

ـ ماذا ؟ هل قال لك المحامى شيئاً فى غير صالح المحاكمة ؟

ـ لا . . ولكن . . أخاك الثالث قد اعتقل هو الآخر

ـ اعتقل ؟ وبأية مناسبة ؟

ـ معركة هائلة فى المطبعة ... لقد هاجموه وهو فى المطبعة وصادروا آلاف المنشورات باسم الفدائيين ، وقد انتحر أحد رفقائه وفر آخر مع عدد من الزملاء فى معركة بالمسدسات جرت فى شوارع الدار البيضاء ولم يبق فى الاعتقال منهم إلا هو وزميل آخر

وابتسمت ... إننا ثلاثة إخوة تغيبنا السجون ، لك الله يا أمى ! فقد اتسع قلبك للأحزان وما زال يحتمل . ولكنها ضريبة الوطن فلنؤدها عن آبائنا وأجدادنا وما نزال مدينين

* * *

وانفتح باب الغرفة المظلمة مرة أخرى . وأستقبل الوجه الكريم وجه زوجى تنقصُه الإشراقة المتوقعة .

ـ جئت أودعك . . فلن أزورك إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة .

ولم أجب ، ولكن علامة استفهام كبيرة ارتسمت على وجهى تلقيت عنها الجواب سريعاً .

ـ لقد اعتقلوا والدى هو الآخر وسأسافر إلى فاس لأكون بجانب أمى فى المحنة .

٢٦

ـ أخبرنى المحامى بأن قضيتى ستعرض على الاستئناف بعد شهر ، فطلبت منه بذل جهوده لتأخيرها .

كذلك أخبرنا الزميل وهو يعود من مقابلة محاميه .

ودهشنا حقًّا فهو محكوم عليه بالسجن سنتين ، وقد قضى منها ما ما يقرب من سنة ، ومع ذلك يرغب فى أن تؤجل القضية فترة أخرى .

ولكنه كان أكثر منا واقعية ، وأكثر منا إدراكاً لمهمة العدالة على عهد الاستعمار فأردف موضحًا

ـ إذا عرضت القضية الآن فمن المؤكد أن المحكمة ستوافق على الحكم الابتدائى ، ومن المؤكد أنى سأنقل من سجن المدينة إلى سجن البادية ، ومن الراحة المطلقة فى هذا السجن إلى الأشغال الشاقة فى ذاك ، وخير لى أن أنفذ الحكم بنفسى وأنا على (ذمة البحث والتحقيق) على أن ينفذ الحكم علىّ فى سجون لا تعرف غير القوة والعنف والحرمان والشغل الشاق .

كان الزميل مجربًا ، فقد سبق أن قضى سنتين فى أحد هذه السجون وكانت فرائصه ترتعد كلما ذكر أنه سينقل إلى أحدها ، وسيقضى بقية المدة فى حقولها فلاحًا يجر المحراث ، أو فى طرقها عاملاً يحطم الصخر ، أو فى مبانيها بناء يهدم أو ينقل الحجر والرمل والجير .

وقد شعرنا بتهديد المصير نفسه. ولهذا كنا مطمئنين إلى إهمال المحكمة لقضيتنا ، قانعين بأن نبقى على ذمة التحقيق شهوراً أو أعواماً حتى نؤدى العقوبة — مقدماً — التى ستحكم بها المحكمة المحترمة .

ولكن قاضى التحقيق بدأ ينفض الغبار عن ملفاتنا ليجعل منها قضية كبرى قد تمكنه من المطالبة برؤوسنا .

وفى ذات صباح تلقت إدارة السجن إخطاراً من المحكمة لتخبرنى بأنى مدعو إلى التحقيق مساء ذلك اليوم .

كل شىء جائز فى عالم الشرطة والقضاء الفرنسى ، فالجندى والقاضى والشرطى كلهم أداة للحكم . وفى استطاعة كل منهم أن يؤدى مهمة الآخر دون أن يفكر فى شىء اسمه فصل السلطات أو الاختصاص فى ميدان الحكم . ولهذا لم أكن أستبعد أن أنقل من السجن وأنا على ذمة التحقيق القضائى إلى مركز الشرطة من جديد . ولم أكن أستبعد أن يكون «قاضى التحقيق» هذه المرة عملاقاً من عمالقة البوليس يجرب معى الأسلوب الذى أتقنه لاستكمال البحث فى القضايا المعلقة الكبرى .

كانت قضية وجدة إحدى هذه القضايا الكبرى ، وكانت أخطرها. فالمتهمون فيها يبلغون الثمانين . وكلهم متهم بالثورة العارمة التى حولت حياة الاستعماريين والجالية الاستعمارية إلى جحيم . وكلهم متهم بأنه نشر البتم والتأييم بين الجالية الاستعمارية فى وجدة . وكلهم متهم بالقتل والعنف احتجاجاً على التهديد باختطاف محمد الخامس .

وكانت قضية وجدة الشبح الذى يخيم على الزنزانة ٢٤ ويعيش فى قلب نزيلين من نزلائها كنت أحدهما . فلم تكن قضية وجدة بعيدة عنا، ولم نكن مجهولين لدى أصحابها ، وكنا دائما نعلل النفس بأن أحد زملائنا قد أطلق ساقيه للريح قبيل اعتقالنا فأصبح خارج الحدود . وأن التهمة قد تلتصق به . ومع ذلك كان الشبح يكاد يجثم علينا كلما تذكرنا التحقيق البوليسى ، وكلما تذكرنا أن المتهمين فى وجدة ما يزال الأحياء منهم على ذمة التحقيق .

هل يكون التحقيق معى إذن على يد الشرطة ؟

هل يراد منه تكملة ملف وجدة . . ؟

سؤالان كانا يرتسمان بخطوط عريضة أمام ناظرى وأنا أفكر فى المحقق الذى سأقف بين يديه مساء ذلك اليوم .

وكانت الساعة الثانية بعد الظهر ، ومع استئناف أعمال السجانين والحراس والمراقبين وقفت سيارة الشرطة عند البوابة الكبيرة تحمل ورقة الإذن بنقلى إلى التحقيق .

كانت حواسى كلها مرهفة وكانت أعصابى متيقظة، وكانت أذنای متعلقتين بالكلمة تنبعث من خارج البوابة ، ولم أنتظر غير قليل حتى رددت أبهاء السجن وساحاته اسمى ورقمى مقرونين بكلمة : إلى التحقيق.

تنقلت الكلمات من الرئيس إلى الحارس العام إلى المراقب إلى الحارس ، وبدأ « البلانطو » هو الآخر يجهر بالنداء . وعلى كثرة ما

يحدث من مثل هذه الإجراءات فى السجن ، فإن الموظفين يشعرون أنهم أمام « واجب» مهم عليهم أن يقوموا به بكل حماس .

واستجبت إلى النداء : بريزان . . « حاضر » .

وتحاملت على نفسى وأنا أسعى إلى الباب مشيعًا بابتسامات التشجيع من زملائى وأصدقائى .

وتطوع أحدهم وهو يلحظ اضطرابى

— تذكر فقط كل ما أدليت به فى تحقيق الشرطة .. احذر التناقض ، فليس أدعى إلى صعوبة التحقيق من أن يقع المتهم فى حبائل المحقق الذى قد يسعى إلى أن يجعله يتناقض مع نفسه .

— اطمئنوا فسأواجه التحقيق بشجاعة ويقظة ، ولو كان فى غرفة العمليات بمركز الشرطة . .

غادرت الزنزانة فى جلد بين الحارس والمراقب حتى أسلمانى إلى رئيس السجن . وكان سؤال وكان جواب ، ليتأكد من أن الشخص الذى سيبعث به إلى التحقيق هو نفسه الذى تطلبه « العدالة » .

وأسلمتنى البوابة الكبيرة إلى سيارة الشرطة حيث ينقل المجرمون الخطرون فى قفص سيارة يحرسه شرطيان مسلحان ويسوقه شرطى يحرسه زميل مسلح .

هكذا وجدتنى وأنا أغادر السجن لأول مرة أجلس فى مكان طالما حمل أخطر المجرمين وأكثرهم تمرداً على المجتمع ، أطل على دنيا الناس من خلال فتحات القفص أرصد أحياء طالما وطئتها أقدامى بحرية ، أرنو

إلى وجوه طالما تقبلت تحياتها باحترام ، سمع أصواتاً اشتقت إلى سماع نبراتها الحرة . أنستنى تأملاتى التفكير فى المهمة التى سأقوم بها ، صرفنى واقعى داخل القفص السيار عن التعرف إلى الطريق وعن معرفة الاتجاه وعن تهيئة نفسى لمواجهة المحقق .

وتطلعت إلى زميلىّ فى القفص : الشرطيين الحارسين ، فرأيت أحدهما ، وكان فرنسيًّا ينظر إلى فى شماتة . يحاول أن ينطق .. ولكنه يرد الكلمات من فيه . . ورأيت الآخر . وكان مغربيًّا ، سارحًا فى لا مبالاة ، وكأنه يقوم بعمل عادى : ينقل سجينًا من آلاف السجناء الذين ينقلهم بين السجن والمحكمة وإدارة الشرطة . لا يدرى أهم ظالمون أم مظلومون . . لقد انعزلت عن زنزانتى ، وزملاء الزنزانة ، وأنا الآن فى زنزنة انفرادية ليس معى فيها غير رفقاء طريق . وردنى عن هذه الوساوس وقفة قوية ارتجت لها أركان القفص السيار واضطرب كيانى حتى كدت أقع

ووقف الشرطيون جميعاً ليحدقوا بى وأنا أدخل باب المحكمة .

٢٧

دار الباشا . . .

هذه هى المحكمة التى انفتحت أبوابها الضخمة العتيدة المنمقة فى وجهى ، فدخلتها لأول مرة وكأنى ألج قفص الاتهام . وهى دار على النظام المغربى ، وقد توحى بالحفلات والاستقبالات ، ولكنها لا توحى مطلقاً بأنها قصر عدالة تختلط فيها الأبهاء بالغرف المفتحة الأبواب . ويختلط أعوان المحكمة بالجماهير التى لا تكاد تدرى أهى متهمة أو متهمة ، ولكنها على كل حال تضم أصحاب الحاجات من كل نوع : هذا يشتكى من كلمة نابية كان ضحيتها ، والآخر يحاول أن يبحث عن مصير قضية قتل ذهب ضحيتها ابنه أو زوجته والآخر يقف مسمراً وكأنه يسند جداراً يخشى أن يقع ، فهو عون ثانوى لا يحتاج إليه إلا عند دخول الباشا أو خروجه ، أما الآخر فهو عون رئيسى دائب الحركة يطبع تحركاته اصطناع ظاهر ، وهو على كل حال ذو ميزة فى شكل هندامه وملابسه والقلنسوة المقببة التى يضعها على رأسه ، والبرنس المجنح الذى يطير من خلفه وكأنه ريش طاووس والسن الذهبية التى تلمع من فيه ، تزيد لمعاناً فى وجهه الأسود القاتم السواد .

ودخلت بين أربعة من حراس الشرطة لأجد نفسى فى هذا المهرجان

الحافل الذى يعج بالبشر وكأنه خلية نحل لا تكاد تسمع جارك من كثرة أزيزها . وتلفت يمنة ويسرة . فإذا بزوجتى وطفلى ينتحيان مكاناً وسط هذا « السوق » المضطرب . فقد علمت زوجتى أنى سأحاكم أو سأمثل أمام قاضى التحقيق فقصدت المحكمة لتشهد الوقائع وفى ركن من المحكمة بعض زوجات زملائى وقد سمعن أن أحدنا سيحاكم دون أن يحدد هذا الأحد .

وقفت زوجتى بحركة لا إرادية وكأنها تود أن تلقانى . فلم تستطع إلا أن تحيينى وتشير إلى ابنى الصغير .

— ها هو ذا أبوك . . . انظر . . انظر . .

وتلفت ينظر إلىّ فى دهشة وفى ذهنه صورة القفص والحارس .. ولم يستطع أن يجرى إلى على عادته فى دنيا الحرية . فقد كان جو « دار الباشا » يبث الخوف حتى فى نفوس الصغار .

ولم أزد على أن ابتسمت لهما ابتسامة تشجيع .

وجرى العون الأسود وبرنسه الأبيض يتطاير من خلفه كأنه جناح حمامة بيضاء . وبدأ يلقى بأوامره فى جلبة الآمر

— هاتوه هنا هل جئتم بآخر يجب أن ينزل الكهف حتى يحضر سعادة المراقب .

— الكهف ؟

قفز السؤال إلى ذهنى . وأنا أتمثل كهف الشرطة الذى استضافنى

ليلتين تاريخيتين وفكرت

– ولم الكهف ؟ جئت للتحقيق القضائى لا لأزور كهف « دار الباشا »

ولم يكن تساؤلى أو تفكيرى لينقذنى من الكهف ، فقد كانت أوامر العون الأسود ذى البرنس الأبيض تستمد السلطة من قربه من « سعادة المراقب »

وفتح الباب الحديدى الضيق ونزلت سلالم خمساً أو عشراً لا أدرى ، فإذا بى تحت الأرض . وفتح الباب الثانى ، ونزلت درجات أخرى لأدخل غرفة كلها أعمدة الأعمدة التى تقوم عليها دار الباشا ؛ وإذا بى أمام خليط من الناس لا أدرى كيف أصبحت بينهم ، سيدتان فى ثياب مزرية . ورجال ينبع البؤس من وجوههم .

دخلت بين الزملاء الجدد أزن خطاى وكأننى متردد أن أزاملهم ، واستقبلونى بتحية الزملاء وإن كان فضول عيونهم لم يخف ما بذات نفوسهم. لقد كانت فيما بدا لى تشعر بنوع من الأنس أو الاعتزاز . وكأن أحدهم يقول للآخر ها نحن أولاء ومن زملائنا هذا الشاب الوجيه الذى لا يبدو أنه ابن بؤس

وتطلعت إليهم وأنا أحاول أن أغض بصرى حتى لا تواجه عيونهم عينى ، ومع ذلك غلب فضول عيونهم إغضائى ، وبادرتنى السيدة وهى تنفثُ دخان عقب لفافة أمسكت بتلابيبها بين سبابتها وإبهامها :

ـ أنت قادم من السجن ولا شك ؟ ولم اعتقلوك . . ؟

وجفت الكلمات فى حلقى . فلم أستطع لكلامها جواباً :

ـ المكتوب

ـ نعم المكتوب كلنا كتب علينا ذلك .. اعتدوا علينا فى سهرة بريئة . . بريئة . كنا رجالاً وسيدات . وجدوا قنينية فارغة قالوا إنما سكرنا بها

وتطلعت إلى فضولى تبتغى جواباً . فما وجدت استعداداً . فقد ذهب فكرى يسرح فيما خلف هذه السيدة من مآس . ولم تقنع بهذا الإهمال فطفرت الكلمات متتالية من بين شفتيها بعد أن خمدت أنفاس عقب السيجارة بين أناملها

ـ لم أكن أنا وايم الله .. كانت زينب تسهر عند صديقها وأرغمتنى على أن أصحبها

وقاطعها شابٌّ مفتول العضلات أسمر الوجه كث الشارب

ـ اسكتى يا مجنونة أتحسبين السيد من طينتك ؟ لقد اعتقل مع الوطنيين . .

والتفت إلى يسأل

ـ أليس كذلك ياسى محمد ؟

هززت رأسى مجيباً . وكأنى أرجوه وأرجوها أن يكفا عن الحديث عن محادثتى ، ولكنها لم تكن لتكتفى . وإنما اندفعت تؤكد رغبتها فى محادثتى .

فقالت مخاطبة الزميل

ـ أتحسبنى حمقاء ؟ أنا أعرف أنه اعتقل مع الوطنيين مسكين . . . ! !

ثم التفتت إلى :

ـ هات لفافة من فضلك . . الوطنيون يدخنون السجاير ؟

ـ ليس عندى ما تبتغين .

وعاد الرجل ينهرها ليتخلص من فضولها ويخلص للحديث إلى :

ـ أنا أعرف كثيراً من الوطنيين ، وأنا نفسى وطنى . . إنما «وكتاب» الله . . بكم حكم عليك ؟

ـ لم أحاكم بعد . . .

ـ سيفرجون عنك ولا شك . إنما ياسى محمد لقد ظللنا يومنا كله بدون أكل ، ولو نفحتنا بقليل من مالك لطعمنا .

ـ ليس معى مال ولا أكل ولا لفائف دخان ، فأنا سجين .. سجين مثلكم .

وترددت فى أبهاء الكهف مسكين . . مسكين . . الله يفرج عليك .

وانبعثت رائحة الكنيف تزكم الأنوف .

وظللت واقفاً فما فى أرضية الكهف مكان يغريك بالجلوس .

وضاقت أنفاسى وأظلمت الدنيا بين ناظرى ، وتطلعت إلى الرفقاء

فلم أجد أحداً منهم يغرى بالحديث .

وتطلعت المرأة البئيسة إلى الباب الحديدى ، وسمعتها تقول :

ـ ماذا تريد يا بنى ؟

ـ أريد بابا ... أريد أن أدخل ء ... ن ... د ب ... ا ب ... ا

وانتشلتنى الكلمات الطفلية الصغيرة من أحزانى . صوت أعرفه ويعيش معى فى آلامى .

وهرعت إلى الباب فإذا به هو .. ابنى الصغير تترقرق فى مقلتيه دمعتان كجوهرتين ثمينتين

ـ بابا .. بابا .. أريد أن أدخل عندك .

لم أحر جواباً ولا صداً ، وإنما استجابت عيناى لبكاء صامت .

وأشفق السجان ففتح الباب وسمعته يوصيه

ـ ادخل عند بابا .. خمس دقائق .

والتفت إلى

ـ خمس دقائق حتى لا يراه الآخرون فيعاقبونى .

وانفتحت الذراعان الصغيرتان لتطوقا جيدى ، وانهال على وجهى بقبلاته الصغيرة :

ـ متى .. متى تأتى عندنا يا ب ... ا ب ... ا . ستذهب معنا الآن ؟

ـ سآتى عندكم فى يوم ما ، وعليك أن تكون رجلاً لتتحمل غيابى .

واطمأن إلى أنسى ، وقف بين ذراعى ينظر فى وجهى دون حارس

ولا عارض قفص . وأخذت أتطلع إليه وكأنى أراه لأول مرة .

— بابا . . أتعطينى ريالاً أشترى به حلوى ؟

وانحبست الكلمات فى فمى وشرقت بدمعى . ولكنى تجلدت :

— ستعطيك ماما ريالين . وسنعطيك أكثر إذا كنت رجلا شجاعًا .

وأخذ يتفحصنى وكأنه يردد فى نفسه :

— لم أعهدك بخيلا

وتلفتُّ نحو جيرتى فإذا المرأة تشهق بدمعها الهتون

— مسكين . . صغير . . وكتب عليه منذ الآن أن يعرف السجن .

وتلفت نحو الرجال فإذا بهم ساهمون ينظرون إلى فى إشفاق وكأنهم يشهدون مأساة على مسرح .

وانتفض النظارة والممثلون على صوت رتيب تردده جوقة الأعوان و « المخازنية »

— الله يبارك فى عمر سيدى . . الله يبارك فى عمر سيدى .

وهتف أحد الزملاء

— الباشا حضر ... الباشا حضر . . .

وفرقع المفتاح فى الباب الحديدى . ودخل السجان مضطربًا

— هات الطفل هات الطفل . . لقد مرت أكثر من خمس دقائق . . . والباشا حضر . . .

وخلصت الطفل من بين ذراعى وأنا أطبع على وجنته قبلة الوداع

٢٨

جاء العون الأسود ذو البرنس الأبيض يطلبنى فاشرأبت أعناق زملاء الكهف وهو ينادى باسمى الكامل .

إن أعصابهم أصبحت على وعى كامل . فهم يفكرون فى المحاكمة والمصير بأعصاب زائغة فأى نداء على أى اسم من الزملاء يفزع أعصابهم فتستجيب ملامح وجوههم وعضلات عيونهم للنداء قبل أن تدرك عقولهم أنهم غير مطلوبين .

وفرقع المفتاح فى الباب الحديدى . وأطل السجان بعنقه الطويل وملامحه السمحة ولحيته البيضاء فردد اسمى وهو يقول :

– لاحول ولا قوة إلا بالله . . يطلبونك يا سيدى . .

تطلعت إلى وجهه السمح الوقور . فرثيت له أكثر مما رثى لى . مثل هذا الوجه الوقور لا يصح مطلقاً أن يكون سجاناً فى «محكمة الباشا» يعتقل المذنبين والخارجين على القانون . ثم يفاجأ بزملاء له فى الوطنية فيغيبهم وراء قبضان الحديد بأيد مرتعشة وقلب دام .

وأيقظنى من تفكيرى صوت « المخزنى» الأسود ينادى

– يالله . . . أسرع سعادة المراقب يطلبك . . .

تقدمنى إلى غرفة المراقب . ودخلت بعد استئذان ... وجه أشقر فيه

ملامح من جمال الرجولة ، عينان ضيقتان تقبعان وراء نظارتين سميكتين ، أناقة فى المظهر والملبس والمكتب . ملفات وأوراق وظروف سميكة مختومة بالشمع الأحمر ، وبجانبه شخص مغربى يحاول اصطناع الجد . ملامح قاسية يحاول أن يزيدها قساوة ، بطن منتفخ ، وعضلات مترهلة ، ونظرات نافذة تمتلئ حقداً ، وبالبعد منهما مكتب صغير يجلس إليه شخص ضئيل لم ألحظ وجوده إلا بعد حين .

كل شىء فى الغرفة لا يوحى بأنها غرفة تحقيق قضائى ، وكل شىء فيها يوحى بأنها غرفة عاديات رآثار ، ومع ذلك فهى منسقة منظمة نظيفة.

وأوقفنى العون بيديه الاثنتين إلى جوار الجدار . وسلمت فلم يرد أحد من الثلاثة السلام ، وبحثت بعينى عن كرسى فلم أجد . .

وبدأ التحقيق يجرى فى نطاق معهود :

ــ أنت متهم بتأليف حزب ممنوع وبالمؤامرة على سلامة الدولة فى الداخل والخارج .

ولم ترعبنى التهمة ، فهى نفس التهمة التى حكم فيها على شهداء (الكاريير سنترال) بالإعدام وأعدموا ، وهى نفس التهمة التى تحاك ضد كل وطنى ، فيقضى سنتين فى الأشغال الشاقة أو يفرج عنه دون عقاب. أوراق لعل التهمة فيها مطبوعة يدرج فيها اسم أى وطنى ، والحظ هو الذى يكيف التهمة والعقاب ، فقد يكون جزاؤه الإعدام ، وقد يكون الإفراج .

ونفيت أن أكون ألفت حزبًا أو قمت بما يهدد أمن الدولة، وبين التهمة ونفى التهمة استمر التحقيق أربع ساعات طوال ليستأنف بعد أسبوع خمس ساعات طوال .

كان السيد المراقب يتكلم بالفرنسية ويترجم الترجمان فأرد بالعربية ويفهم دون حاجة إلى ترجمة . كان يعرف العربية كأحد أبنائها ، ولكنه لم يكن ليتنازل فيتحدث بها فى « مجلس القضاء » وكان مما يسلينى هذا الحوار الأصم أفهم عنه فأجيب بلغة أخرى ، ويفهم عنى فيسأل بلغة أخرى . ومع ذلك أكبرت فيه اعتزازه بلغته ، وحرصه على أن يفرضها لأنها لغة الغالب .

كان الحوار بيننا شديداً عنيفًا، كل حججه فيه أقوال الآخرين ، وكان صمودى قويًّا عنيفًا كل حججى فيه أن زملائى وأصدقائى الذين اعترفوا قد يكون اعترافهم تحت ضغط البوليس ، ولذلك لم يتمكن من أن يمسك برأس الحبل فى تهمة خطيرة هى المساس بأمن الدولة

وسألنى عن شخص اعترف بى فأنكرت معرفته ، ووقف حائراً لا يدرى كيف يواجهنى . وظلت أصابعه تعبث بمفكرة جيب كانت مما صادره مفتشو الشرطة فى منزلى . فإذا به يلمح من خلف نظارتيه السميكتين اسم الشخص مكتوبًا فى صفحة منها بيضاء .

سرى عنه ولمعت فى جبهته ابتسامة الظفر مشرقة ضافية :

ــ أتنكر أنك تعرف محمد برادة ؟

— ليست لى به من معرفة .

— وإذا كان قد أقر أنه يعرفك ؟

— ليس ببعيد أن يعرفنى ، فاسمى وعملى كصحفى قد يدفع ببعض المواطنين أن يعرفوا عنى ما لا أعرف عنهم .

— وإذا أتيتك بحجة أنك تعرفه ؟

— لن تكون حجة ، فالواقع أكبر من أية حجة .

— إذن فاقرأ . .

ومكننى الترجمان من المفكرة فإذا اسمه بخط يدى ولا مزيد . .

كانت أعصابى متيقظة إلى حد بعيد ، وكنت أصارع من أجل حياتى ، وكنت أعرف أن أى خطأ فى التحقيق قد يودى بى وبزملائى أو يدفع بنا إلى الأشغال الشاقة سنتين كاملتين . ولذلك لم تكن أعصابى لتنهار إزاء هذا البرهان المادى ، فابتسمت ابتسامة ساخرة انتزعتها من شعور عابر بالهزيمة مع مصارع لا يرحم .

— لعل السيد المراقب لا يعرف المجتمع المغربى حق المعرفة . .

دهش قبل أن أكمل الجملة وقفز الترجمان قفزة ارتجت بها أعصابه . فهو لم يعتد أن يسمع تنقيصًا يواجه به السيد المراقب ، وحاول أن يقاطعنى فأكملت حديثى فى بهجة الظافر :

— فالأسماء وأسماء العائلات تتكرر وتتشابه ، وأستطيع أن أعد لك من معارفى وأصدقائى عشرات يحملون نفس الاسم . أيمكن أن يكونوا

جميعاً قد تآمروا معى على المساس بأمن الدولة ؟

وعاد ظفره انتكاساً فلوى رأسه يعبث بأوراق عله يظفر ببرهان جديد، وارتعشت عضلات الترجمان وهو ينقل ناظريه بينى وبين المحقق ، وأحسست بالانتصار فاتقدت أعصابى رغم إجهاد .

وكان على السيد المراقب ألا يظهر الهزيمة فتناول المفكرة مرة أخرى ليبحث أرقام الهاتف وليحقق فى الأسماء المكتوبة بإزاء الأرقام . ومرة أخرى تمده المفكرة (ببرهان قانونى) فقد لحظ اسم أحد الأصدقاء من الدار البيضاء ، وكان قد قرأ فى الصحف فى نفس اليوم أنه اعتقل .

— تعرف فلاناً ؟

— نعم .

— وعندك رقم هاتفه ؟

— نعم .

— وفيم تتصل به عن طريق الهاتف ؟

وابتسمت ابتسامة ساخرة ثم قلت

— أستعمل رقم الهاتف فيما يستعمله الناس عادة

وخجل وهو يقول منخفض الرأس

— لو لم تكن لك به صلة وثيقة سياسية مثلا لما سجلت رقم هاتفه !

— يا سيدى المراقب الهاتف ليس معناه الصلة السياسية .

وأمسك قصاصة صحيفة فرنسية ، وأشرعها فى وجهى وهو يقول :

ـ ألا تعرف أنه اعتقل ؟

ـ لا أعرف لأنى فى السجن لا أقرأ الصحف .

يئس من أن يجد حجة تدينني ، وظل مع أوراقى يحقق فى امتلاكى لهذا الكتاب أو ذاك وفى عملى الصحفى ، وانتهت الجلستان دون أن يعلن إثبات التهمة .

وعند البوابة الكبيرة توقف القفص السيار ليسلمنى رجال الشرطة إلى حارس السجن مرة أخرى نظير وصل مكتوب .

٢٩

انتصف الليل أو كاد ... وليل السجين يبدأ فى الخامسة مساء ومن الكوة المطلة على ساحة السجن اندفعت أصوات استغاثة مكتومة تطلب النجدة ، أعقبها ضوضاء تنبعث من بعيد بعيد ، خلف الأسوار والأبواب المغلفة ، تتجاوب مع حديث استنكار ينبعث من الساحة .

إن السجن فى مثل هذه الساعات يغرق فى صمت عميق حتى كأن أنفاسًا لا تتصعد من بين جنباته، فما له الليلة يرتعش كأن حريقًا شب فى أحد أركانه ؟

تساءلنا فى همس ، وكانت مناسبة للزميل الذى ما يزال يزعم لنا ولنفسه أنه أعرفنا بالسجن فقال

— فى مثل هذه الحالة يكون أحد السجناء قدهرب أوحاول الهرب ... وقد يكون أحدهم أصيب بمكروه .

فأضاف زميل آخر من القدماء

— لا هذا . . ولا ذاك . . وإنما هو اعتداء من نوع الاعتداءات الليلية .. لقد استضاف السجن اليوم شابًا جديداً يبدو أنه غير مجرب... وارتفع الصراخ المكتوم من جديد . . وارتفعت أصوات الحراس

خلف الأبواب تهدد . . . وتردد اسم غريب :

– سترى يافويلة . . . صباحك أشام صباح .

وطغت الضوضاء داخل الأبواب الحديدية ولم نتميز منها إلا :

– إنه يموت . . . لعله مات الحقوه . . . افتحوا الأبواب . .

وردد الحراس

– يجب أن ننادى « الشاف» ليتحمل مسئوليته .

افتحوا الباب . . ترددت الكلمتان دون أن تجدا صدى فى نفوس الحراس ، فالأبواب التى تتعانق فى الخامسة مساء لا يمكن أن تفتح قبل الثامنة صباحاً، وحراس السجن يعتبرون أنفسهم بمثابة حراس حديقة الحيوانات . الأقفاص التى تحتضن الأسود والنمر والفهود لا تفتح أبوابها إلا إذا كان الاستعداد كاملا لخوض مغامرات خطيرة . . ومن قوانين السجن أن الأبواب لا تفتح ليلا فالليل مدعاة للمؤامرات والمغامرات والمعارك الدامية فى سبيل التخلص من الأبواب السبعة . ولن يتحمل أى حارس مسئولية فتح الأبواب ولو كان لأمر يهم الموت أو التهديد بالموت.

وأبلغ الأمر إلى «الشاف» بتفاصيله وأدرك بخبرته ألا خطر من فتح الباب – بعد استعداد حراس السطح والبوابة والساحة المدججين بسلاحهم للتدخل عند أية بادرة تمرد ،وفتح الباب ليحمل المعتدىعليه إلى مستوصف السجن ، ويحمل المعتدى إلى « الكاشو » .

و « الكاشو » غرفة مظلمة لا نور فيها ولا هواء ولا ماء ، وطاؤها

حصير وغطاؤها سقف متداع نخرته الرطوبة والبرودة والقدم، غرفة عقاب للخارجين على قوانين السجن وتعليماته ، لا يتناول المذنب فيها غير كوبى ماء وكسرتى خبز جافتين مما تعافه الكلاب ولا يخرج منها منذ يلج بابها إلا بعد انتهاء مدة العقاب ، ولها بذلة خاصة تمتاز بالقدم والخروق والثقوب لا تستطيع أن تقى برداً أو تدفع حرًّا .

وفرقعت المفاتيح فى عنبر السجن الذى شهد الحادث المروع ، والذى ضاق عن أن يحتمل هذه الليلة ما احتمله الليالى ذوات العدد ، بعد المقاومة الباسلة التى أظهرها النزيل الجديد . ومع انفتاح الباب تناهت إلينا الضجة واضحة قوية كطنين نحل فى خلية فارهة . كان نزلاء العنبر كلهم مع النزيل الجديد ضد « فويلة » ، كلهم يشتمونه ويعلنون اشمئزازهم من تصرفاته ودكتاتوريته فقد كان عريف العنبر . والعريف فى السجن ملك بين رعيته ينعم بكل أطايب الحياة على حساب الرعية ، يسلب غذاءهم ويأخذ حظه مما وصلهم من كساء أو طعام أو سجائر ، ويشترون حسن معاملته بالمال يدفع خارج السجن ، أو بالمتاع يجلب إلى الداخل ، ينام على سرير من « البطاطين» ويغطى بغيرها كثير ، يبلغ أوامر الإدارة إلى رعاياه . ويعطى تقريره اليومى عنهم ، وهو قادر على أن يحميهم أو يصب عليهم جام غضب السجن

وهذه السلطة المطلقة تجعل عصيانه أمراً خطيراً قد يؤدى إلى طريق الموت كما حدث للنزيل الجديد ، الذى استعصى عليه أن يفهم الوضعية

على حقيقتها ، وأن يكون طوع بنان السيد فويلة . . .

وكانت زنزانتنا فى طريق « الكاشو » بحيث يمر المجرم — إجرام السجن — على الزنازن التى يتسمع سكانها من وراء الأبواب لخطواته وانفعالاته وعنف المعاملة التى يلقاها من الحراس وهو فى طريقه إلى دار العقاب .

وانتظرنا قليلا ، فإذا الضجة تقترب ، وإذا مجموعة من الحراس تقود فويلة كما يقاد ثور آبق إلى المجزرة . كلهم يضرب وكلهم يشتم وكلهم يعنف ، وسمعنا ناصحهم الأمين ينصح :

— لماذا لم تقتل « عرزتك » بالنهار يابن الفاعلة ؟

وكان «فويلة» على عادته يستهين بما يصيبه من مكروه وكأن الضربات القاسية لم تكن منصبة على قفاه . كان فى تخلصه من الضرب يثير الضحك والسخرية ، فهو يعرف أن حبل العذاب قصير ، وأنه يجب ألا يفقد ثقته فى نفسه ، فليتحمل فى شجاعة ، وليستعن بشخصيته المرحة ، فستنفعه فى محنته الثانية كما نفعته فى محنته الأولى ، إنه فى السجن الشخصية الثانية بعد رجال السلطة ولن يحتفظ له بمكانته إلا مرحه وحسن تقبله . كان يهتف بجلاديه فى حركات تمثيلية مضحكة :

— آه . . . لا تضرب هناك . . هذه أوجعتنى كثيراً . . . آعمى الجيلالى أنا صديقك . . .

وانتهى فويلة إلى « الكاشو » ، ولم يستعد السجن هدوءه إلا بعد أن اطمأن الحراس إلى أن الجريح لم يمت وأن إغماءته بدأت تنقشع .

وكانت معركة الليل حديث السجن فى الصباح الباكر ، وكان « فويلة » على كل لسان ، وكان هو يتحمل العقاب فى شجاعة ، فلم يفقد أعصابه ، ولم يهن على نفسه ، بل إنه كان يذكى الحديث عنه بالأصوات الساخرة التى يصدرها فتتردد فى آفاق السجن ، كان يقلد الديكة والدجاج والخرفان فيبعث على الإعجاب ويستجلب الود ، وتضيع معالم جريمته فى الشوق الذى يخلفه فى نفوس أصدقائه ، وبينهم المدير والرئيس والحراس. وقد استطاع أن ينتصر بشخصيته المحببة ، فكان السجين الوحيد الذى ينقل إليه فى دار عقابه أحسن الطعام وأعذب الماء وأجمل كساء فى غفلة عن القانون وبمساعدة منفذى القانون .

وكان الحكم صوريًّا وأقل قسوة مما تستحقه الجريمة ، فلم تمر أيام حتى عاد فويلة إلى نشاطه وكأن شيئاً لم يكن . فالجريمة التى دخل من أجلها السجن هى نفسها التى تكررت داخل السجن ، وقد اعتاد الجريمة والعقاب فى غفلة عن ضميره وعن القانون .

وعاد فويلة يغزو قلوب السجانين والمسجونين جميعاً بحركاته التمثيلية الساخرة وبتقليده للرئيس والمدير والحراس يتبعها بزقزقة طير أو صراخ ديك أو نقيق ضفدع وهم عنه راضون ، وعاد إلى غزواته الليلية دون أن يثير ضجة أو ينال عقاباً . . .

٣٠

لم يكن فويلة نموذجًا فريداً مما يقدمه السجن من نماذج ، ولكنه كان أحد هذه النماذج الغريبة التى تطفو على وجه المجتمع فى السجن فتتميز بذكائها ونشاطها وقدرتها على الحظوة والتغلب فى مجتمعها المحدود الآفاق .

فالسجن كان مجتمعًا صغيراً يضم الأذكياء والمجربين والشجعان وذوى المواهب وعشاق المغامرات ، أكثر مما يضم البلداء والمندفعين وراء الجريمة بالرغم عنهم

وكان من هؤلاء المغامرين « البارزيان » شاب فى مقتبل العمر ، كان مصوراً محترفًا فى دنيا الناس ، يتحدث كأى باريسى سليم اللسان واسع المعرفة ، يعرف باريس ويتحدث عن أحيائها وأوكار المغامرات والنزوات فيها حديث الخبير ، وكان يعرف صحفها ومجلاتها ، ويحتفظ بقميص ملون مرسوم عليه معظم الصحف اليومية الفرنسية بعناوينها وشعاراتها يلبسه من حين لآخر ويصيح وسط السجن صيحة بائعى الصحف فى أحياء باريس ، بلهجتهم التقليدية ولغتهم المعروفة فيثير الضحك من حوله ويبعث على التقدير من مدير السجن ورئيسه وحراسه .

وكانت تلك إحدى وسائله إلى غزو إدارة السجن والتمتع بامتيازات ما كان يظفر بها غيره من الأشقياء ، تحول من سجين عادى إلى موظف

إدارى أو رئيس قسم « الطاشمات » — المنقولين من السجن وإليه — فهو يسجلهم ويشرف إداريًّا على نقلهم واستقبالهم .

ووظيفته هذه — غير المأجورة — مكنته من أن يتملك طائفة من المساجين ، يوهمهم بأن فى إمكانه أن ينقلهم إلى أحسن سجن أو إلى أسوأ دار عقاب ، ومن ثم أصبح النجم اللامع الذى ينظر إليه على أنه رب السلطة المطلقة

ورب السلطة فى السجن يجب أن يكون له جزاء ، ومن ثم كان الباريزيان ينعم بالطيبات مما يفيء عليه المسجونون من أكلهم وملابسهم وسجائرهم ، ولكنه كان أكثر طموحاً من أن يكتفى بالتافه من طيبات السجن ، فكان يطمع فى أن يعيش حياته خارج السجن ، ولذلك كان يحاول أن يستخدم المسجونين الذين يخرجون إلى العمل فى الصباح ليحملوا إليه فى المساء أكلا وسجائر وخمرًا .

وكل شيء فى السجن جائز إلا الخمر ، ولذلك ما كادت الإدارة تشعر بأنه يهرب الخمر إلى داخل السجن حتى جن جنونها ، وقررت التخلص منه والانتقام من تصرفاته فبعثت به إلى ملحقة لسجن الرباط تعتبر دار عقاب وعمل شاق .

وخضع للعاصفة مكسور الرأس ، فرواد السجن يتعلمون أن يحنوا رؤوسهم للعاصفة حتى لا تدهمهم ولم يعد السجن يتحدث عن الباريزيان ، ولم نعد نسمع كل صباح صيحات بائع الصحف البارسية :

لومند — بارى بريس — لوماتنيي . . .

ولكن إدارة السجن ضعيفة أمام العقوبات التى تتخذها ، حريصة على أن تحتفظ بمساعديها من السجناء كل موظفيها لا يستطيعون أن يقوموا بمهماتهم ، فهى مضطرة أن تستعين بنزلائها ، وهى مضطرة أن تعفو عن شخص مثل باريزيان ، وهى مضطرة أن ترضاه ، ولو استطاعت لأصدرت حكماً بسجنه إلى الأبد فى سجن الرباط . .

وعاد باريزيان وهو أقوى شخصية وأكثر نشاطاً وأرحب أفقاً وأكثر دالة على إدارة السجن ، ولكنه كان مع ذلك أكثر حذرًا ، يهرب الخمر ، ولكن باتفاق مع الحارس العام ، ويشربها فى اعتدال ولا يشرك أحداً من أصدقائه حتى لا يفلت زمام الحذر منه .

وظل باريزيان الشخص الذى يستطيع أن يسهر خارج العنبر أو الزنزانة حتى العاشرة مساء ، فهو قادر على أن يجمع عمله الإدارى إلى ما بعد ساعات العمل ، وهو قادر على أن يقنع رئيس السجن بالإذن له بالسهر خارج الزنزانة يتجول فى السجن كما يريد ، وينفذ رغباته أمام الحارس وفى غفلة عنه ويتصل بالسجناء ليبلغهم تعليماته الليلية رغم أنف الحارس وبحضوره .

أخذ مرة قائمة « الطاشمة » المجموعة المنقولة ومر بالعنابر وهو ينادى خلف الباب ليخبر المنقولين ، ولكنه كان يتحدث بالعربية إلى غيرهم ليطلب إليهم ما يحملون إليه من الخارج ، وهم يعودون من العمل اليومى.

وتسمع إليه يتحدث فى جد ويلقى تعليماته فى صرامة فترثى للحارس الفرنسى الذى يقف أمامه فى بلادة وهو لا يدرى ما يدبر الباريزيان .

سألناه مرة وقد زارنا فى فسحة السجن ليبلغنا بعض التعليمات — فيما زعم للحارس :

— لماذا اعتقلت . . . ؟

— اعتقلت لأنى وطنى مثلكم ، اعتقلتنى الشرطة وأنا أصور مظاهرات الوطنيين فى الدار البيضاء . . .

وطفق يتحدث عن وطنيته وكفاحه فى باريس بجانب العمال المغاربة ، ويروى قصصًا طريفة عن مغامراته ضد البوليس الفرنسى الذى يحاول أن يعتقل العمال الوطنيين .

وأصبح بهذه الرواية صديقاً نقدره ونشركه فيما يرد علينا من طيبات ، حتى بحث أحدنا فى السجلات فوجده من أرباب السوابق .

٣١

قال «بال مال» وهو يتحدث بنعمة السجن علينا :

ـ ماذا ينقصكم ؟ تتمتعون بكل شيء ، الراحة ، الأكل ، عدم الانفراد ، لا ينقصكم شيء غير المرأة . . .

وكان فى السجن حى آخر ليس من شك فى أن الحارسة كانت تهتف بنزيلاته

ـ ماذا ينقصكن ؟ تتمتعن بكل شيء ، الراحة ، الأكل ، عدم الانفراد ... لا ينقصكن شيء غير الرجل .

حقًّا إن السجن يستطيع أن يصبح باب الحرية للتمتع بكل ما يحرمه القانون ، إلا المرأة وإلا الحرية نفسها كان السجين المجرب يستطيع أن يقرأ ، والقانون يحرم القراءة إلا بإذن ، وكان يستطيع أن يأكل، والقانون لا يبيح من الأكل إلا ما يجيزه الحارس، وكان يستطيع أن يحشش ويشرب الخمر ، والقانون يحرم الحشيش والخمر ، كان يستطيع أن يتحدى القانون ، إلا عندما يبلغ التحدى بالرجل حد المرأة أو يبلغ بالمرأة حد الرجل .

ومع ذلك فقد استطاع بعض المعتقلين أن يقنع إدارة السجن بالعمل فى الحقل أو فى ترصيف الطرق بالبادية ، ولم يكن شيء أسهل عليهم

من إقناع الحارس بالسماح لزوجاتهم أو صديقاتهم بزيارتهم فى الحقل...

وكانت الوشاية طبعاً وكان المنع الصارم من العمل خارج السجن .

وفى ساعة الاستراحة كان صوت المرأة ينفذ إلينا من فوق الأسوار العالية ، كانت الرقعة المثلثة المخصصة لاستراحة الرجال تجاورها رقعة مثلثة مخصصة لاستراحة النساء ، وكانت الأسوار العالية تفصل ما بين الرقعتين ، ولكنها لا تستطيع أن تحد صوتاً ينبعث من محروم أو محرومة لينفذ إلى إذن محرومة أو محروم .

كان مما يسلينا أن نستمع إليهن وهن يغنين أغانى خليعة تنبعث منها رائحة الجنس : أصوات بعضهن كانت رقيقة منغمة ، وأصوات أخريات كانت مبحوحة مجلجلة ، يحشرج فيها دخان السجائر وجرعات الخمر الردىء . وكانت أغانيهن ضراعات يحسبنها نافذة إلى قلوب الرجال خلف الأسوار الضخمة ، ولكنا كنا أشد قسوة من الستار الحجرى الذى يفصل بين المثلثين ، لم نكن مطلقاً نلين لهذه النداءات الغنائية التى كان يحلو فيها الصوت ويرق ويضرع كلما ردد نداء الجنس ، وكان الرد على هذا الجمود فى أغنيات أخرى تصف قسوة القلب وخيانة الحبيب . كنا منصرفين انصرافاً كلياً عن هذه القلوب المتحرقة شوقاً إلى الجنس خلف الأسوار ، ولكن الانصراف لم يطفئ غلة الشوق ، فهن يعرفن عن طريق الخبرة الطويلة – فيما أحسب – أن الرجل سهل ممتنع يجرى وراء المرأة ما دامت

النخوة فى الكفة الأخرى لترتفع إلى السماء ، فالرجل ممتنع متأبٍ كلما ذلت المرأة فأصبحت هى الطالبة .

كنا نخلى مثلث الاستراحة فيدخل آخرون ، ويبتدئ الغزل البرىء العفيف لأن مهمة الأسوار العالية أن تجعل منه غزلا عفيفًا بريئًا ، ولكن الصوت أحيانًا كان يرضى رغبة الجنس ، فالحرمان المتبادل يخفف من شقائه صوت ناعم أو خشن يمثل — على الأقل — ذكرى كان الصوت فيها نقطة البداية لعلاقة حمراء . . ولعله لم يكن أشقى على السجينات من أن ينفذ إليهن صوت رجل من وراء السور العالى ، فكن يتخطين هذا البعد البعيد فتهتف إحداهن

— آسى محمد . . . ارم بسجارة الله يطلق سراحك .

كنا لا نستجيب ، ولعل غيرنا كان يقذف بسجارة من وراء السور العالى فتكون صلة ود تتطور إلى غزل برىء بالرغم عنه .

وأبينا مرة أن نستجيب للنداء الحار اليقظ فهتف صوت فيه حشرجة :

— آسى محمد خذ السكر واقذف بسجارة .

وانطلقت قطعة سكر فى وزن رطل كقنبلة مسددة ، قذفتها يد صناع خلف السور وكادت تصيب زميلا لنا فى قمة رأسه ، لولا صيحة تحذير انطلقت من أحدنا أبعدته عن المرمى .

وأخبرنا الحارس ليبعث باحتجاجنا إلى إدارة السجن فكفت عنا هذه المعابثة السمجة .

ولعل احتجاجنا كان له أسوأ الوقع فى نفس شابين كانا نزيلى السجن.

أما هو فكان شابًّا حييًّا لم تعرف عنه المدرسة غير الجد والاستقامة والحياء ، وأما هى فقد كانت فى مقتبل العمر جميلة حية نشيطة متطلعة مراهقة . كان الكبت وسجن المنزل يدفعها لأن تبحث عن المنطلق ، وتعرفت إليه فكان فتى أحلامها ، وكانت كل دنياه المرفهة العابثة ، يختلس من دروسه وقتًا ينعم فيه بلقياها . كانت لا أم لها أو هى مطلقة، وكان أبوها يغرق فى أشغاله ويتركها حبيسة المنزل فى عهدة خادمة صغيرة كثيراً ما كانت تغض الطرف لتترك « السيدة » الصغيرة تنعم بفضل من حرية وفضل من متعة .

وتعاهدا على أن يقضيا عطلة الأحد فى بلد بعيد عن أعين الرقباء وفضول العارفين ، وانتظر . . انتظر طويلا بعيداً عن المنزل فى صباح يوم مشرق من أيام الربيع كانت الورود والأزاهير . . تناديهما لتشهد آخر فصل من مأساة قلبين جمع بينهما الحب بأوثق صلاته .

ووصلت لاهثة مصفرة ترتعش ، فغاضت ابتسامة الاستقبال من شفتيه الغضتين

— مالك ترتعشين . . . ؟ أصادفت أباك فى طريقك ؟

— ليتنى صادفته ...لقد وقفت فى طريقى ...وهددتنى بتبليغ والدى...

— ثم بعد ؟

— ضربتها بسكين . . إنها صريعة تتخبط فى دمها . . .

ولم يملكا إلا أن ينفذا برنامج يومهما الحافل . ولم يتنبها إلى عمق الهوة التى ففرت فاها تحت أقدامهما إلا عندما أرخى الليل سدوله . فمآسى الحياة تطغو فى دنيا الأحياء عندما تغلف الشمس سدول الظلام .

وظلا فارين بحبهما ولم يدريا قط أنهما أصبحا فارين من وجه العدالة حتى داهمتهما الشرطة فى نزل متواضع بمكناس

كانت نزيلة سجن النساء . وكان نزيل سجن الرجال

وفى مثلث الراحة كان ينعم بصوتها الناعم يأتيه من بعيد بعيد خلف السور العالى . كان ينتهزها فرصة ليعيد على مسامعها ذكريات حبه الطافحة بالأمل فى مستقبل أسعد . وكان يسمع صوتها فينعش أمله الذابل ، ويستعيد شريط حب قصير سرعان ما انتهى إلى مأساة

لم يكن السجن يضم غير هذا النموذج الإنسانى الذى ساق القدر فيه قلبين تعاهدا على الحب والوفاء للحب حتى انساقت فى سبيل الوفاء بوعد حبيبها أن تزيح إنسانة بريئة من دنياها . حتى لا تراقبها أو تشى بها مرة أخرى .

وهفا زميل لنا إلى مداعبته

— لم تعد تسمع صوتها . . . أتراهم منعوا النساء من أن يتحدثن خلف السور . ؟

واحمر وجهه خجلاً . وتمتم وهو يفر — حياء — من وجهنا :

— صوتها ..؟ صوتها يتردد فى قلبى دائمًا متخطيًا الأسوار والحراس وأوامر السجانين

٣٢

كان « بال مال » يجمعنا سكان زنزانتين أو ثلاثة فى زنزانة واحدة ، فى الساعات التى يدخل فيها كل سجين زنزانته ويحرم الاتصال وفتح الأبواب . لنأكل جميعاً أو نتحدث أو نلعب الورق . وكان لقاء ذلك يشاركنا أكلنا إذا رأى فيه ما يروقه أو يزيده ضخامة وسمناً ، وكنا نتنازل عن حصة اثنين لنرضى نهمه . فهو يأكل بيديه الاثنتين ، ويمسك نصف دجاجة كما قد تمسك أنت عصفوراً زغباً ، وكنا نلعب الورق وهو يشاركنا بهجتنا ولا يعرف من لعبة الورق غير هتاف اللاعبين فى المقاهى البلدية رونده . . طرينكة .. ويهتف بالكلمتين بلهجة أعجمية تثير الضحك . وبحركة سريعة من يديه وكأنه من أرباب المهنة .

ولم يكن اجتماعنا يصرف فى الأكل أو لعب الورق فحسب ، ولكنه إلى جانب ذلك كان اجتماعاً سياسياً فى كثير من الأحيان : كنا نتحادث عن مصير البلاد متتبعين التطورات التى تطرأ على الحالة السياسية وحركة الفداء . وينجر الحديث إلى وضعنا كمسجونين على ذمة التحقيق .

العدالة فى المغرب كان يمكن أن تحيل الشخص فى المغرب إلى السجن على ذمة التحقيق . ويتم التحقيق ويطوى الملف ويترك المتهم فى السجن لأن أحداً ما لا يفكر فيه . ولا يعنى بالحكم عليه أو الإفراج عنه .

وكنا جميعاً من هذه الفئة انتهى التحقيق فى الأسابيع الأولى من اعتقالنا . ومع ذلك ظللنا على ذمة العدالة فى سجن لا ندرى كم تطول مدته . ويتحدث أحدنا عن أسباب سجنه فيقول

— إنهم لو يدرون لحكموا بالسجن سنتين . ولو حدث هذا لسرحت . . هناك أشياء لعلهم ينتظرون نتيجة التحقيق فيها .

ويقاطعه الآخر

— وجدة . . ؟ أليس كذلك ؟ لو امتد التحقيق إلى قضية وجدة لنقل معظمنا إلى المدينة التى تنتظر أعظم محاكمة فى تاريخ المغرب

— لا تتزعجوا . . فالتحقيق فى قضية وجدة قد انتهى . . وإلا لكنتم الآن فى سجن وجدة لا فى سجن الرباط

ويهتف صالح — يرحمه الله — وابتسامته العذبة تطفح من فيه . وهو يقلب يديه ظهراً لبطن كعلامة استفهام

— أما أنا فلا أدرى لم اعتقلونى ؟ ماذا صنعت . . . ؟ ونضج جميعاً بضحكة مدوية

— ماذا صنعت . . ؟ صنعت ما صنعه كل واحد منا أنت متهم بالمس بأمن الدولة الداخلى والخارجى

ويضحك ملء فيه وهو يجيب

— أمن الدولة ؟ أنتم حقيقة عرضتم أمن الدولة « للخطر » أما أنا فلم أكن غير مدرس عادى لم أقم بما من شأنه أن يهدد أمن الدولة ...

لقد أكدت ذلك للشرطة ولوكيل الدولة .

— فهل اقتنعوا ؟

— إذا لم يقتنعوا فليشربوا البحر أقول لكم الحق . سيفرج عنى بعد أيام لأنى مظلوم .

ويتلقف الحديث زميل آخر :

— نحن المظلومون . ولو أفرج عنك بهذه الحجة لكان قد أفرج عنا نحن منذ زمن بعيد . .

وتتردد الضحكات فى جوانب الزنزانة وينطق الزميل الذى كان يحسب نفسه أكثرنا علماً بإجراءات المحاكم

— ستظلون فى السجن سنين بدون محاكمة . ثم يحكم عليكم « بما قضيتم فيه الكفاية . . . »

وضحكنا جميعاً فنطق آخر

— لا تضحكوا .. فهذا حكم يصدر دائماً على الذين يشتهى «القضاء» أن يعاقبهم دون حجة وانطمئن بالاً فلن يفرج عن أى منا

وعبست الوجوه . ونطق أكثرنا تفاؤلاً

— لقد طلبت من المحامى أن يتدخل

وأطلقت ضحكة هازئة

— المحامى . . . ؟ أتعرفون قصة المحامى . . . ؟ لقد اخترت محامياً من بين الذين كانوا يزعمون أنهم أصدقاء ولكنه سرعان ما تملص

زاعمًا أن محاميًا فرنسيًّا قد يكون أقدر على الإفادة .ونقلت عائلتى الملف إلى المحامى الفرنسى الذى استوفى أجره مقدمًا. ثم لم ير وجهى ولم يقم بأى عمل لصالحى. وأمطرته وابلاً من الرسائل أطلب إليه أن يقوم ببحث مع المتهم على الأقل وانتظرت الأشهر الطوال حتى بعث إلى شابًّا «تحت التمرين» قام بزيارة خاطفة لم يزد فيها على أن طمأننى بأنه سيقوم بكل ما تفرضه عليه المهنة . وذهب ثم لم أره بعد ذلك .

علق الزميل المجرب فى سخرية

ــ سيبلغك الحكم الذى قد يصدر غيابيًّا

وضحكنا ... ولكن الزميل الذى يظهر دائمًا بمظهر المتعقل قاطعنا جادًّا

ــ ماذا يصنع المحامى ؟ الحكم يصدر فى إدارة حاكم الناحية ويعلنه الباشا بعد أن يلقنه إياه المراقب المدنى أتدرى ماذا يصنع الباشا حينما يكون المحامى يخطب ؟ إنه يتأوه ويسبح فى بحر لجى من النعاس . حتى إذا انتهى المحامى أيقظه المراقب ومكنه من ورقة الحكم المكتوب فينطق به الباشا وكأنه يتلو القرآن . . . لا تبديل لكلماته . . .

وعاد صالح ــ يرحمه الله ــ يهتز ضحكاً ويقلب يديه وهو يقول :

ــ مهما يكن فستشهدون هذه المهزلة عما قريب . . .

ــ وأنت ؟

ــ أنا . . . ؟ سيفرج عنى قبل أن يصل وقت المحاكمة لأنى مظلوم.

واهتزت الزنزانة ضحكًا مرة أخرى فتنبه الحارس من بعيد. وجاء إلينا يلهث

– ماذا ؟ أتريدون أن تفضحوا عملى معكم ..؟ كل يعود إلى مكانه.

قالها بلهجة آمرة وصوت صارم . وحاول أحدنا أن يترضاه ولكنه كان عصبيًا بحيث لا يرضى وهو ثائر .

وعاد كل منا إلى زنزانته . وأقفلت الأبواب لتفتح بعد قليل فى جلبة وعنف . وصوت جهورى ينطلق من وراء الباب

– فيكس

ووقفنا جميعاً لكلمة « فيكس » فقد كان رئيس السجن يقوم بجولته التفقدية .

٣٣

واستمرت الأيام بطيئة تافهة مملة ، الجديد فيها قديم والمناظر فيها تتعاقب وكأنها منظر واحد تعرضه أمامك الأيام والليالى فى رتابة بليدة .

والسجن الذى يحد أفقك لا ينال منك بأيام محدودة بقدر ما ينال بالشهور ذوات العدد ، ولا ينال منك بالحد من حريتك وتقييد تصرفك بقدر ما ينال برتابة الحياة التى تصبح كدقات ساعة أبدية فى سكون لا نهائى تتغير من حولها الدنيا وما تزال هى فى نقراتها الرتيبة المملة .

كثيراً ما كنا — نحن عشيرة الزنزانة — نجلس والظلام من حولنا يوثق نفوسنا بقيوده الثقيلة . ولا يجد أحد منا الكلمة يفتح بها حديثاً يبدد ظلمة الظلام ، ويخلصنا من كابوسه المعتم . وكان هذا الأفق يضيق كلما تقادم العهد بعشرتنا ، حتى أصبح الكثيرون منا يبحثون عن أسلوب يجددون به حديثهم علّنا نتخلص من القفر السرمدى الذى يطبق على آفاقنا

ولكن السجن مع ذلك كان — وفى شهوره الأولى على الأخص — مسرح استعراض للنفس دون أصباغ ولا ألوان ، كان يحطم قيوداً يعيش فيها كل منا عيش الأسير ، وكان يفتح آفاقاً للحرية لا نجدها فى مجتمعنا العادى ، وكان على ضيق زنزانته يفتح كوة نطل بها على نفس كل منا

كما هى فى واقعها ، لا كما يطبعها المجتمع بروائه الزائف .

والسجين عادة لا يخاف مجتمعه ولا ينافقه ، وكثيراً ما يدلى السجين لزملائه باعترافات كاملة عن جريمته دون أن يخضع لرقيب أو يخشى من مصير . فالرقيب النفسى يختفى من حياة السجين فيعيش طليقاً حراً من كل قيد وذلك تعويض أى تعويض — عن الحرية التى يفتقدها .

وكنا — عشيرة الزنزانة — متأثرين لهذا اللون من الحرية : تخلصت نفس كل منا من قيودها ، وحلت عقدة كل لسان ، وكشف كل منا عن الجانب الخفى فى حياته وفى نفسه . ولأول مرة كان بعضنا يدلى باعترافات ظلت حبيسة فى ضميره سنين ذوات عدد جوانب نفسية طريفة . وتاريخ مكنون حى . من الظلم للحياة الإنسانية أن يعيش فى ضمير صانعه وأن يموت معه ، ولكنه المجتمع الذى يستطيع أن يقبر أشخاصاً ونفسيات يستطيع أن يقبر تاريخاً وأحداثاً .

كانت أسمار الزنزانة كثيراً ما تتناول الجانب الخفى من حياة كل منا . وشهدت الزنزانة اعترافات وقصصاً رائعة لو قدر للأدب أن يسلط عليها أنواره لكانت من روائع المآسى أو المهازل . ولكانت من أروع التجارب الإنسانية التى تطفح بها الحياة ، وكثير منها يظل فى مكنون الغيب .

كان أكثرنا حديثاً زميلا لم نعرف عنه إلا الجد والصرامة والاستقامة ، وكان يبلغ من جده أحياناً حد الغلظة فيما يبدو ، ولكنه كان أرق نفساً

وأحر عاطفة فى الجانب الخفى من حياته وكانت تجارب الحب التى مرت به حافلة بمظاهر الحياة الغرامية الهادئة الناعمة منها ، والعنيفة القوية . كان شبابه نابضًا بحياة قلبه . كان يحب فى عنف . ويواجه غرامه بكل ما تملك حواسه من حرارة ، وما يواجه قلبه من غيرة ، وكانت فتاة سمراء لعوبًا صغيرة السن ملتهبة العاطفة ناضجة الأنوثة . كان يحبها فى جنون وكانت تحبه . فيتخطى إليها كل أسوار المجتمع الضيق المحافظ ، وكل قيود الوظيفة واستعبادها . وكانت تتخطى إليه كل قيود العائلة المحافظة الرقيبة ، وتتحدى سلطة الأم وقسوة الأخ ورقابة الوالد الشيخ .

وكان يتيه فى جمالها وحبها أحيانًا عن عمله كمدرس . فيهمل وينقطع ويتعرض لمصاعب المدرسة وتهديد الإدارة . ولكنه يجد تعويضاً عن كل ذلك فى الساعات التى يقضيها سابحًا فى عينين خضراوين تتوسطان وجه صبية سمراء ، وفى سنابل ذهبية رائعة متهدلة أنضجها ربيع دافئ فأرسلتها فى غير ما تصنع لتكسو كتفيها وظهرها بينابيع الفتنة التى أسرته وقادته فى طريق الغواية كان يجلس إليها فيأسره صباها ونضجها وغرتها ، وقدرتها على أن تكسر شوكة طبعه الحاد . فيذل وهو الأبى . ويتصابى وهو الشاب المعتز برجولته . ويطيع وهو المتمرد . ويصبو وهو المحافظ ، ويهيم وهو المتعقل الرزين .

وكان يغار عليها فتنتابه الهواجس . ويثور لنظرة أو إعجاب . وتعرف غيرته الجامحة فتستغل صباها لتوقد النار الكامنة فى قلبه ، ثم تجفوه أحيانًا

لتتركه فى جحيم الشوق والغيرة . وتوهمه أنها ستتركه ليسلس قياده . حتى إذا أدركت وطرها من تعذيبه سعت إليه مفاجئة فى دلال وكأنها لم تهجره قطّ

وكان يرتكب حماقات ليكسر حدة دلالها . ولكنها كانت أعرف به من أن تنهار أمام مؤامراته وأكثر ثقة فى نفسها من أن تنخدع بحماقاته ، بل إنها كانت تغريه أحيانًا بارتكاب هذه الحماقات لتضحك ملء فيها وهى بعيدة عن المسرح ولتشعره بقوتها على تملك زمامه .

كانت الغيرة هى المظهر العارم لهذا الحب اليائس فكان يتمنى أن لو كانت أقل فتنة وجمالاً إذا لم يستطع أن يأسر كل هذا الجمال ويتملكه . ولكنها هى كما هى فاتنة . . رائعة جذابة . . . جمالها يدعو إليها العيون البريئة لتنفذ إليها من خلف اللثام والجلباب . . . وتلك مأساته .

فاجأته يومًا بزيارة المنزل فلم تجده ، فقضت صباحًا نشيطًا فى المنزل الصغير . وأسلمها الانتظار إلى نوم عميق أسلمت فيه كل جسدها وكل فتنتها إلى سريره فى اطمئنان المعتدة الواثقة بنفسها وقدرتها على صيانة عفتها . أرسلت سنابلها القمحية ليعبث بها نسيم الربيع الوديع . وأسلمت جفونها إلى الملاك الطاهر . ملاك النوم الذى احتضنها فى رأفة بين ذراعين حانيتين .

وفتح الباب . باب منزله الصغير . لتدهمه المفاجأة القوية . إنها هى مسلمة كل فتنتها لسريره واستيقظ فيه الرجل والولهان انحب

والغيور المتيم . وهى . . هى بين يديه لترضى كل ذرة من ذرات حبه الجارف .

ووقف أمامها بكل شخصياته يتأملها ويشتهيها ، ويثور على الجمال الفاتن الآسر الذى حطم كبرياءه :

لو لم تكن جميلة بالقدر الذى يرى لما كانت سبب شقائه . . .

لو لم تكن لعوباً متمردة لأطفأ صدى حبه فتزوجها . . .

لو كانت عيناها أقل لمعاناً وفتنة . . .

لو كان شعرها أقل عذوبة وبهاء وطولاً

شعرها هذا الذى يوقد نار الغيرة فى نفسه . كيف تكون لو كان شعرها غير هذه السنابل الذهبية التى تغرى كل رجل بها . . .؟

وتأملها طويلاً ، ثم امتدت يده فى رأفة حلم لتمسك بالسبائك الذهبية ولتتخلل أصابعه فى فوديها . إنها نائمة ، واثقة ، مستسلمة إليه.

ترى ماذا يحدث لو أطفأ غلة غيرته ، وسلبها هذا التاج الذى يغرى بها العيون العطشى إلى الجمال ؟

لم يفكر ولم يتردد . وإنما امتدت يده فى ثقة وشجاعة إلى المقص ليحصد سنابل القمح عله يحتفظ بها وحده . .

وانتفضنا جميعاً نسأل

ــ ثم ماذا بعد ؟

وتوقف قليلاً يسترجع ذكرياته

ـ نعم استيقظت بعد أن ارتوت من نومها العميق وفتحت عينيها فى ابتسامتها العذبة :

ـ أنت هنا . . لم لمَ توقظنى ساعة قدومك ؟

ـ أخاف عليك يا عزيزتى فحاولت ألا أزعجك . .

نهضت سريعة خفيفة متعجلة لتزيل عن وجهها بقايا نعاس وصعقتها المرآة وهى تكشف لها عن وجه جديد سلبه المقص كل فتنته وروائه وصباه . . وارتعدت وهى تنكر ما ترى . . .

ووقفت مبهورًا أنظر إلى يدى ترتعشان فى إجرامهما .

وعبر وجهى عن الألم ، ألم الاعتراف بالجريمة . ولكنها لم تطل النظر فى وجهى ، فقد اختفت ملامحى وراء دمعتين كبيرتين ، ثم أجهشت بصوت دام حزين

وانطلقنا نسأل

ـ ثم ماذا بعد ؟

ـ تركتها لتشفى غليل بكائها ثم طغت شخصيتها على محنتها ، واستعدت لتفارق المنزل وقبل أن تختفى وراء الباب التفتت إلى :

ـ أعطنى .. أعطنى أجرة الحلاق لأنقذ رأسى من تشويه ما صنعت يداك .

ثم غيبها الباب عن عينى إلى الأبد .

٣٤

نادى السجان بصوت فيه نبرة فرح وهو يفتح باب الزنزانة فى عنف :

ـ صالح . . صالح . .

وانتفضنا جميعاً نسأل

ـ هل هى زيارة فى الصباح . .؟ هل هو المحامى تعطف فزار موكله ؟

وابتسم السجان فى ابتهاج

ـ لا هذا ولا ذاك .

ثم التفت إلى صالح يستحثه

ـ استعد . احزم أمتعك فأنت حر منذ الآن .

واستدرك حر . . أعنى أنه يمكن أن تحرر . . . فقد وصلت للإدارة ورقة تطلب تسليمك لعون المحكمة مع أوراقك .

وعمت البشرى أرجاء الزنزانة فصحنا صيحة واحدة

ـ تحيا الحرية . . لقد تحققت أحلامك . . المحكمة لم تجد فى ملفك ما يستحق العقاب .

ـ هش . . هش . . ما هذه الفوضى . . . ؟

كذلك صاح السجان وأقفل الباب فى انتظار أن يستعد صالح لمغادرة الزنزانة

غمرتنا الفرحة جميعاً وانتشرت ابتسامة عريضة على وجوهنا ، إلا صالح – يرحمه الله – فقد ابتسم ، ثم انطفأت الابتسامة فى وجهه ، ووقف فى اضطراب لا يحير جواباً . ولا يستطيع أن يقوم بعمل .

– صالح . . . ألست فرحاً بمغادرتك السجن ؟

وحاول أن يسترد الابتسامة إلى وجهه الصبوح . وأن يطرد السهوم فى عينيه ، وأن يجيب :

– بلى . . ولكن . . ولكن . . أنتم . . ؟ ما معنى أن أترككم وأخرج إلى دنيا الحرية ؟ ألم نكن معاً فى صفوف الكفاح ؟ أتشك المحكمة فى وطنيتى وعملى . . كنت هازلاً حينما حدثتكم أنى لا أستحق السجن . .

وقطعت كلماته الحزينة صيحة السجان من وراء الباب :

– أسرع . . . يالله . . . أنا فى الانتظار .

وكان السجان ينفذ القانون ، فمنذ وصول الورقة لإدارة السجن لم يعد لصالح مكان بيننا ، وكل دقيقة تمر تعتبر اعتداء على حرية شخصية تقدسها القوانين ، إنه الآن فى السجن بدون قانون ، والإدارة تريد أن تتخلص من مسئولية شخص لا حق لها فى اعتقاله ، وصالح أصبح حراً الآن فكيف يجوز له أن يجلس مع سجناء فى غرفة واحدة ؟ ! إن ذلك مما لا تجيزه القوانين .

وعادت صيحات السجان من وراء الباب :

– أسرع . . أسرع . .

، وعدنا نشجع صالحًا على احتمال المفاجأة ، ويظهر أن ما كان به ليس فقط أن يتركنا ويدلف إلى عالم الحرية ، ولكنه كان صعبًا عليه أن يهجر دنيا وجد صعوبة فى تحمل آلامها ، حتى إذا ألفها ، قبل له اخرج منها فإنك حر طليق . .

السجن كالحياة يدخلها الآن مشفقاً على نفسه ، وعلى ما سيفتقد من دنياه حتى إذا ألفها وتمكنت من نفسه ، خرج منها وهو مشفق على نفسه كاره لمغادرة ما ألف من حياة .

وقد رأيت سجناء من الذين يسميهم المجتمع « مجرمين » يودعون أصدقاءهم ونزلاء عنابرهم وفى وجوههم حسرة ، وفى عيونهم دمعة ألم .. إن دخولهم لدنيا الناس ميلاد جديد ، وهل رأيت مولوداً يخرج إلى الدنيا دون أن يصيح صيحة الخوف مما سيلقى من مصير . . . ؟

وعدنا إلى صالح نعينه ونساعده ، وعاد أكثرنا شجاعة على احتمال الموقف يحاول أن يلطف الجو بمزاحه

— لا تنسنا . . لا تنسنا « بالقفة » المليئة بالمشهيات والأطايب . .

وعادت الابتسامة إلى وجه صالح — يرحمه الله — وهتف بنا يقول :

— ستخرجون قبل أن أجد الوقت لإمدادكم بالقفة .

وكنا نستعجله . ولكنه كان يبطئ فى الاستعداد رغبةً منه فى أن يبقى أطول مدة ممكنة فى الزنزانة التى أصبحت له منزلاً . يجد فى جدرانه وكوته التى تمدنا بالهواء والنور ، وصنبور الماء . والثقب الرابض فى ركن

الجدارين . يجد فى كل ذلك تعويضًا عما كان يجده فى منزله الفاره وحريته المطلقة

وفتح السجان الباب وهو يرعد

– اخرج إذن . . ودع أصدقاءك فالإدارة فى انتظارك .

وخرج صالح وفى عينيه دموع فرح ، ودموع ألم . واصطك من خلفه الباب الذى انفتح فى وجهه من بضعة أشهر ،وسار يتقدمه السجان يفتح الأبواب السبعة فى وجهه ليقفلها علينا من جديد ، فدنيا صالح أصبحت غير دنيانا ، بين عالمينا سبعة أبواب . .

عددنا أنفسنا فوجدنا العدد قد نقص شخصًا ، كأن صالحًا فينا

خروج صالح كان رقماً نقص فى دفاتر إدارة السجن .ولكنه كان فى واقعنا حدثًا جديداً هل هو تطور فى الاتجاه السياسى للسلطة الحاكمة ؟ أو أنه كان مجرد إجراء اقتضته ظروفه الصحية ؟ هل يقربنا خروجه من باب السجن ، أو أنه كان تصفية لعناصر المحاكمة خرج منها البرآء وبقى « المذنبون » ليقدموا إلى المحاكمة ؟

أسئلة أخذ كل منا يجترها دون أن يهتدى إلى جواب . فميزة السجن أنه يفتح أمامك السؤال ولكنك لا تجد عناصر الإجابة إلا فى الاحتمالات . والاحتمال دائما يغرقك فى متاهات الضلال . .

وأقبل الليل . واجتمعنا مرة أخرى نبحث « المشكلة » ، مشكلة الإفراج عن صالح ، وكان من الممكن أن لا تكون مشكلة . أن تكون عنصر

أمل ، فصالح عضو منا ، والإفراج عنه بشير بالإفراج عنا جميعاً ولكن عنصر التشاؤم كان أقوى من كل أمل ؛ أو أن المتشائمين منا كانوا أقدر على خنق روح الأمل فى المتفائلين .

وأخذ أكثرنا تشاؤماً يتحدث :

ـ كلكم ستخرجون تباعاً . . أما أنا فقضية وجدة تعيش فى قلبى . . لو ضموا ملفى إلى ملف وجدة لكان الإعدام مصيرى . .

وأشاع القلق فى نفوسنا . . حاولنا أن ننتصر على تشاؤمه ، ولكنه استعصى علينا ، فانتصر على تفاؤلنا أكثر مما نلنا من تشاؤمه .

وكان الإفراج عن صالح الموضوع الذى يملأ فراغنا ، وكل أيام السجن فراغ . وكانت عيون أغلب الزملاء تنبض بالألم ، كانت ناطقة ولو سكتوا . . .

ولكن هذا الألم انكشف بعد أسابيع ، فقد أخذنا نودع كل أسبوع زميلاً من زملائنا . كانوا يخرجون الواحد بعد الآخر فتغيبهم الأبواب السبعة عن أنظارنا دون أن يذكروا لحظة التشاؤم المريرة .

وبقيت أنا وزميل لى لم يكن متفائلاً ولا متشائماً ، وإنما كنا معاً نأخذ الحياة على حقيقتها لا مجال فيها للتشاؤم ولا للتفاؤل ، لأن ما كان يحكمها من منطق لا يدع لك الحرية لتأخذ طريق المتفائلين أو طريق المتشائمين .

٣٥

حينما كان آخر زملائى يغادر الزنزانة شد على يدى مشجعاً :

ـ حظ سعيد ، وسنلتقى قريباً فى عالم الحرية . . .

وغيبته الأبواب السبعة باباً بعد باب . وبقيت وحدى فى الزنزانة ، وحدى مع الجدران الأربعة وصنبور الماء والثقب الذى يأوى فى الركن الموازى للركن الذى أضع فيه رأسى حينما يقهرنى النوم .

وحدى فى الزنزانة أجتر الوحدة . . وأفكر فى الكلمات المشجعة التى ودعنى بها الصديق وهو يتأهب ليدعنى وحدى فى الزنزانة .

لم أشعر قط بالسجن كما شعرت به والباب يصطفق خلف الراحل إلى . . عالم الحرية .

الوحدة هى التى تعطى السجن معناه الحقيقى . ولذلك كان الانفراد عقاباً للسجين وليس هو النظام العادى فى السجون العادية. وحينما خرج آخر زملائى شعرت أنى ارتكبت إثما جديداً أستحق عليه الوحدة والانفراد .

ماذا أصنع فى ٢٤ ساعة تتكرر . وكأنها الزمن كما ولد قبل أن يملأه الإنسان بالعمل وقبل أن يبتكر وسائل قتله وإبادته .. أفكر . . أقرأ . . أستلقى على قفاى فى بلادة كما يستلقى الذين لا يجدون كفاءة لمواجهة الزمن! الوحدة أقوى من كل ذلك إنها تطغى على كل تفكير تصطنعه ،

وكل كتاب تظفر به بعد جهد ومخاتلة ، وكل استلقاء يريحك من ضغط الجدران الأربعة .

فى زنزانة الشرطة كان معى رجال ، تغيبهم الأبواب وتأتى بغيرهم ، وكان معى الشاب الذى يملأ أحلامى بالرعب وهو يهذى عاريًا إلا من سروال يستر بعض عورته ، وكان معى الفار اللطيف الذى يخرج متلصصًا باحثًا عن بقية عشائى ليتعشى ،حتى إذا ظفر به ساقه وهو يدحرجه، كما ندحرج الكرة ، معبرًا عن فرحه بغنائه الساذج الجميل .

وفى زنزانة السجن كان معى رفقاء الكفاح ، لم نشعر أننا فى سجن جديد ، فقد كنا فى سجن أكبر تحده جدران بعيدة المدى ، آفاق أوسع ، ولكنا مع ذلك كنا فى سجن لا نستطيع منه فرارًا، ولا نتمكن فى داخله من عمل ، العمل الذى نريد، ودخلنا سجونًا متفرقة ، ولكن البعض ممن كان معى من الزملاء كان يتيح لنا الاستمرار . . فى التفكير على الأقل .

وها هى ذى الوحدة تقطع حبل الاستمرار هذا . . .

لست أدرى لماذا لا يعتاد الإنسان الوحدة ؟ لأنه مدنى بالطبع كما يقول علماء الاجتماع ، ولكن الحقيقة أنه يخاف من نفسه فيلتجئ إلى الغير ليحمى نفسه من نفسه .

الوحدة عذاب لأن الإنسان يستطيع فيها أن يقهر نفسه بالتفكير الجدى ، وأن يذرع طول الدنيا وعرضها متفلسفًا باحثًا عن اللامحدود،

وتلك مهمة شاقة لا تقوى عليها نفس إنسان ، ولهذا تلجأ الأغلبية من بنى البشر إلى المجتمع لتتخلص من عذاب النفس .

ولكن قوماً استطاعوا أن يتغلبوا على هذا الالتجاء فنفوا أنفسهم إلى عالم الوحدة ، وقهروا نزوعهم إلى التمدين . فكان منهم الفلاسفة والمتصوفون والذين أبدعوا فى التفكير الإنسانى شيئاً جديداً. وبما أبدعوا شغلوا المتمدنين بالطبع الذين يخافون من أنفسهم فيحتمون بالمجتمع ، ويظلون حياتهم يجترون ما أبدعه الآخرون .

هؤلاء الذين نفوا أنفسهم إلى عالم الوحدة كانوا يتصرفون بحريتهم ، وكانت حريتهم نقطة الانطلاق فى عالم اللامحدود ، أما أنا فوراء باب الزنزانة حراس وحراس . . .

حاولت أن أزيح عنى الخوف من نفسى ، فكثيراً ما اشتقت — فى عالم الحرية — أن أخلو إلى نفسى حين أتبرم من الإنسان الذى يشغلنى بتفكيره وكلامه ، ومن الذين يتسربون إلى ، ولو فى خلوتى ، ليحدثونى فى كتبهم وصحفهم . وها هى ذى فرصة نادرة تتاح لى لأواجه نفسى وجهاً لوجه ، ولكنى مع ذلك كنت أفاجأ بصيحة السجان خلف الباب ، فتنتزعنى الصيحة من عالم الوحدة إلى عالم « المدنى بالطبع » .

ومع ذلك فأنا الآن وحيد ، وأنا بين اثنتين : إما أن أجعل من وحدتى عالماً أحيا فيه ، وإما أن أترك الوحدة تأكلنى ... لامجال للاختيار فما تعودت أن أترك الزمن ينتصر علىّ ، وما تعودت الانهزام ، فرحباً بالوحدة

على أن تكون وسيلتى إلى الحياة التى أريدها . وبمحض اختيارى .

وجدت عالم الانفراد عالمًا جميلاً تمكنت فيه من السيطرة على نفسى وتفكيرى ، ولأول مرة فى حياتى أنعتق من تأثير الآخرين ، ومن قبولهم أو معارضتهم . أفكر لنفسى ثم أقبل التفكير أو أرفضه فى حرية مطلقة . وجدتنى كالإنسان الأول حينما كان سيد نفسه ، وسيد عالمه . كان سعيداً بهذه السيادة التى تتيحها له الوحدة . كان ينطلق هائمًا فى الطبيعة وفيما حوله فلا يجد من يقول له « قف . . هذا ليس مكانك . . » كان يفكر وينفذ ، ويتخطى من يقف فى وجه تفكيره أو تنفيذه .

فلم لا أكون الإنسان الأول ؟

عشت حقًا أيامًا سعيدة ملأت فيها عالمى بالأفكار والأشخاص . أعيش معها حياة السيد المطلق التصرف . كنت كمن يعيش فى مدينة لا يعرف لغة أهلها ، لا يشاركهم حياتهم ، ولكنه يدرس تصرفاتهم من بعيد . يفكر فيهم من حيث لا يحسبون لوجوده حسابًا . ويستخلص من تصرفاتهم المعنى الحقيقى لإنسان المدينة . ملأت عالمى بالأشخاص والأشباح والصور . وأعددت العدة لأكون فيلسوفًا أو متصوفًا . كان من الممكن أن تنتهى بى فلسفة الوحدة إلى الإيمان المطلق أو إلى الإلحاد المطلق وكان من الممكن أن تنتهى بى إلى حياة العابد الزاهد الذى يرجو أن يرى الله فى ركوعه أو سجوده . ثم هو فى غنى عن أى دنيا غير دنيا الله .

ولكن عالمًا آخر استبد بى هو عالم بلادى . فأنا هنا . فى وحدتى .

من أجلها نفيت نفسى رغبة فى أن أحررها من نفى مفروض عليها. وجودى لها ، فى اجتماعه ووحدته ، محال أن تتركنى أشقى فى هذه الوحدة كما لم أتركها تشقى فى محنتها . واتجه تفكيرى إليها ، لم يكن تفكير العاجز ولكنى كنت أرسم الخطة لعمل ما يمكن أن يخلصها من محنتها .

كنت إذن أهبها كل دقيقة من حياة الوحدة ، وكنت سعيداً بهذه الهبة ، إلى أن انتزعنى من هذه السعادة صوت سجان أجش ينادى احزم أمتعتك ، فلم يعد لك مكان بيننا . .

٣٦

لم يدهشنى نبأ الإفراج عنى . كما لم يدهشنى من قبل بقائى فى السجن بعد كل زملائى . فما يدهش هو أن تخالف المنطق والعقل للمرة الأولى ، أما أن يكون « اللاقانون » هو الذى يحكم ، فما شىء يدهش فى عالم الحكم المطلق . وتحكمت فى أعصابى حتى كأنى تلقيت خبرًا عاديًا فبنفس الأعصاب الهادئة التى استقبلت بها مفتشى الشرطة وهم يطرقون بابى فى صبح هادئ منذ ستة أشهر ، استقبلت حارس السجن وهو يناديني فى صباحى ذاك ليطلب إلى الاستعداد للرحيل .

ولكنى مع ذلك أحسست بشعور مفاجئ يغمرنى ، فسأغادر دارًا ألفت جدرانها ، ولو كانت مطبقة كالحة متآكلة . وسأغادر قومًا ، حراسًا ومحروسين ، ألفت سماع أصواتهم حتى حببت إلىّ ، وألفت أوامر الحراس منهم وتعاليهم المضحك ، وتعليماتهم الساذجة حتى أصبحت عزيزة على نفسى بمقدار ما تثير فيها من اشمئزاز وكراهية . وألفت هذا القيد الذى أتاح لى جوانب من المعرفة ، معرفة الأصدقاء والأعداء ، الحاكمين والمحكومين . وألفت هذا الجو الذى تتصاعد رائحته فتزكم أنوف الزبناء الجدد ، ولكننا — نحن القدماء — ألفناها حتى تشربتها دماؤنا واطمأنت إليها أنوفنا . وألفت حر هذه الزنزانة المظلمة وبردها القارس ورطوبتها التى

تحطم العظام ، فكأنى فيها ولدت وفيها نشأت . فما عادت إرادتى تندفع متطلعة إلى هواء نقى وشمس مشرقة صافية مضيئة . وألفت هذه الأسمال التى كانت منذ أشهر ستة بذلة أنيقة . فتمزعت خيوطها بفضل الرطوبة والكتم حتى أصبحت لا تكاد تستر ما تحتها من ركب وأفخاذ .

الإنسان ابن بيئته . تكيفه الأحداث وتجعل منه الإنسان الذى تريد ، وما كنت أومن بهذه الحقيقة حتى وجدتنى تلميذاً أعيش على شظف فى وقت الحرب بعيداً عن الأهل ومصادر الرزق . وحتى وجدتنى مرة أخرى فى زنزانة قذرة رطبة . تطفح منها رائحة عفنة .

. وما هذا كل ما كان يربطنى بهذا السجن ، فقد كان بالسجن جناح آخر خاص بالوطنيين الذين تقدموا إلى محكمة الاستئناف كانت بينى وبينهم أبواب وحراس وسجانون .

وكانت مع ذلك تصلنى أصواتهم العامرة باليقين والإيمان حينما يهتف مؤذنهم عند موعد كل صلاة : الله أكبر . . الله أكبر . . وحينما يتجمعون بعد صلاة كل مغرب ليقرأوا قراءة إجماعية بصوت جهورى آيات من القرآن . كانت هذه الأصوات المؤمنة هى التى استقبلتنا مغرب يوم دخولنا إلى السجن ، وقد فتحت أمام نفسى آفاقا من اليقين والإيمان . وما تزال هذه الأصوات ترن فى أذنى فتبعث فى نفسى نفس اليقين ونفس الإيمان كلما هتفوا بجموعهم يقرأون

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . . .

هؤلاء أيضاً سأتركهم لمصيرهم بعد أن تحدد مصيرى فكيف يحلو لى أن أدعهم لهذا المصير المجهول ؟

ومع كل ذلك فدخول السجن كالخروج منه لا يقبل هذه الفلسفة .. أوامر تصدر فتختطفك من فراش نومك وعائلتك ليلقى بك فى السجن .

لماذا ؟ لا أحد يدرى . . .

وأوامر تصدر فتختطفك من هذا الجو الذى ألفته ليرمى بك فى الشارع .

لماذا ؟ لا أحد يدرى . . .

مرت هذه الأفكار فى ذهنى وأنا أحزم أمتعتى فى جلد أمسك به دمعتى أن تفور ، وأصد به أعصابى أن تضطرب . وتبعت السجان الذى كان يخطو وئيداً وكأن به ما بى . فالسجانون أيضاً كعمال الفنادق يألفون الزبون ويشعرون نحوه بالود على رغم المهمة التى يقومون بها إزاءه . فإن طول الزمن يزيل ما بينه وبينهم من جفاء وتحل صداقة محل جفوة أو عداوة.

واخترقت ممرات وأبهاء . . أبواباً تفتح فى وجهى ثم تغلق من خلفى . وكانت منذ ستة أشهر تفتح فى وجهى ثم تغلق من خلفى كذلك ، ولكن الاتجاه كان معاكساً .

وبين البوابتين الكبيرتين وقفت للمرة الثانية أنتظر تصفية أوراقى ، فرقم ما سينقل من دفتر الوجود إلى دفتر العدم ، أنا بالنسبة إلى إدارة السجن كنت موجوداً تعنى الإدارة بشأنى ، بحراستى ومراقبتى وإطعامى — إن قبلت أن أطعم أوراق الكرمب الجافة مسلوقة فى الماء — وسأصبح

بالنسبة إليها معدوماً لا وجود لى ولا لرقمى فى غير دفاتر التاريخ ... وبين الوجود والعدم عملية لا تحتاج إلا إلى قلم وقرطاس .

ونظر إلى الحارس (الشاف) الذى يقف بين البوابتين وكان قد رآنى فى مثل موضعى ذاك منذ ستة أشهر ، وزفر زفرة أسى وهو ينطق بهذه الكلمات المشجعة

ــ تآكلت بذلتك . ولكنك ستعوضها ، والحمد لله على سلامتك .

وشكرت للرجل العجوز ــ الذى أدرك مأربه فصار « رئيساً » وما يزال يقف بين البوابتين لأنه كان مغربياً ــ شكرت له عطفه الذى لم أكن فى حاجة إليه .

وتلفت حولى لأواجه عينين ذابلتين امتصت نورهما شيخوخة وسقم وبؤس ، فى وجه معروق العضلات تلثم معالمه لحية كثة بيضاء . ونطق الرجل أخيراً :

ــ الحمد لله على سلامتك . . أنا عون المحكمة سأصيحك إلى السيد « المراقب» . . . فى سبيل الله يابنى . .

نطق بالكلمات فى تلعثم والدموع تكاد تطفر من عينيه المرهقتين .

وشكرت الرجل ولم أزد ، فقد غمرت نفسى أسى كلمات العجوزين وهما يريان فى وجهى المغرب المقهور .

ونادى الحارس مرة أخرى :

ــ السيد . . ادخل عند السيد الرئيس .

السيد ؟ طال عهدى بهذه الكلمة ، فالسجين لا حق له فى أن يدعى « السيد » ... كلمة لا تعرف داخل البوابات ، بل إن كل الكلمات التى تناقض السيادة هى التى يحفظها الحراس عن ظهر قلب ، ويستعملونها كلما همُّوا بمحادثة المعتقلين . ولكن « ما بين البوابتين » الذى فقدت فيه اعتبارى منذ ستة أشهر ، يعاد إلى فيه اعتبارى اليوم فأسمع كلمة « السيد » لأول مرة .

وصافحنى الرئيس وهو لا يرد على أية تحية من مسجون ، فالسجين لا حق له حتى فى أن يحيي أو يرد على تحيته ، ومكننى مما كان لى فى صندوق الأمانات وهو يودعنى بكلمة : « حظ سعيد » .

وانفتحت البوابة الأخيرة فى وجهى لأودع السجن وكلمات الرئيس ترن فى أذنى حظ سعيد

٣٧

رميت الباب خلف ظهرى فاستقبلتنى عيون متطلعة ثم شفاه هامسة: سيدات ورجالا ، عمق الألم فى وجوههن ووجوههم أمارات الحزن الدفين ينتظرن وينتظرون الإذن بمقابلة ، فما منهم إلا من له خلف البوابات ابن عزيز أو أخ أو زوج . وما منهم إلا من كان يرغب أن يكون هذا الذى تلفظه البوابة الكبيرة أخاه أو ابنه أو زوجه .وما منهم إلا من قد عرفنى من وجهى إن لم يعرفنى باسمى . فأخذت الشفاه الهامسة تسر إلى الآذان مسكين مسكين . . لقد رأيته عدة مرات فى « البالوار » .

واخترقت الحاجز فى صمت، فليس هناك ما كان يؤلمنى — وقد زرت إخوتى وأصدقائى فى سجونهم — أكثر من أن أرى الأخوات والأمهات والأطفال والزوجات ينتظرون خلف البوابات فى إشفاق ولوعة وشوق . وقد رأيت مرة سيدة عجوزًا رسم الزمان على محياها جلال الشيخوخة وقضم الكبر أسنانها فما كانت تستطيع أن تقيم أود كلمة ، ولكن نور الإيمان كان يطفح من جبينها المشرق وهى تتحدث عن ابنها الذى حكم عليه بالإعدام وكانت تنتظر لتراه وتشجعه وربما لآخر مرة . . .

ووجدتنى فى الشارع العريض — العريض جدًا — أخطو خطوات أحسبها طويلة عريضة شاسعة ... لقد انمحت من نفسى المقاييس ،

وتغيرت الآفاق .

ستة شهور فى زنزانة ضيقة ، تحد آفاق نظرى جدران سميكة متعالية ، ويكبس على نفسى سقف عنيد ، وكل زادى من نور وهواء ينفذ من نافذة معلقة تتقاطعها قضبان حديدية سميكة ، كنت أسير فى رحابها خطوة أو خطوتين ثم ينتهى بى الأمد أمام جدار صارم أو باب مقفل يأمرنى : أن قف . . .

وأضحيت — وأنا فى شارع عريض لا حد لعرضه ، طويل لا حد لطوله — كأنى تخلصت من طبيعتى ، فأنا فى حاجة إلى أن أتعلم من جديد أن أسير ، حتى لا أرتكب مخالفة بين الذين يسيرون ، أن أحدد مدى انطلاقة صوتى وأنا أتكلم حتى لا أرتكب مخالفة بين الذين يتكلمون ، وأن ألاحظ فى قصد حتى لا أثير انتباه المارة من حولى .

إن وضعى كان شاذاً ، وقد شعرت بهذا الشذوذ حتى بلغ منى الشعور حد المرارة ، وكدت أصيح فى عون المحكمة : أن أعدنى إلى زنزانتى ، فلست من عالم الحرية هذا الذى تزعمون . . .

ولكنى تحاملت على نفسى وأنا أساق من عالم السجن إلى عالم المنفى ، فما فى دنياى هذه — دنيا الحرية — شىء يتجاوب مع نفسى ، هناك انفصال فى عالمى هذا ، انفصال كامل بين ذاتى بكل مركباتها وبين الواقع الذى يتمثل فى الناس من حولى يسيرون ، وفى الشارع العريض الطويل يرحب بالآلاف لا تتزاحم مناكبهم ولا يصطدمون بجدار أو باب

يمنع مسيرهم ، ولا يردد أصداء أصواتهم سقف يدنو ، ثم يدنو حتى لكأنه يريد أن يطبق .

إن دنياى هذه الحافلة بالأضواء المليئة بالحركة والأصداء ، تظللها سماء صافية زرقاء لا تحد أبعادها جدران ولا بوابات ، إن هى الا منفى سحيق ، كم أنا فى حاجة إلى صبر لأمارس الحياة فيها .

* * *

وأيقظنى من أفكارى صوت منبه سيارة تعدو على مهل فى دنيا الواقع ، ولكنى حسبت كأن شيطانًا يسوقها إلى غير مستقر . . نظرت إليها فأحسست كأنها تنزلق على أرض أو على منحدر ثلجى كما ينزلق هواة التزحلق يندفعون دون إرادة ، وليس ما يدفعهم إلا قابليتهم للانزلاق . لقد انفصل حسى هو الآخر عن واقع هذه الحياة ، فعدت كطفل يرى لعبته السيارة تسير لأول مرة منطلقة بقوة سحرية غريبة .

إننى فى منفى سحيق ،سأعيش فى وحدة قاتلة بعيداً عن صوت «فويلة» وهو يوزع الأوامر على السجناء ليتخطى مشاعره بأنه سجين ، وبعيداً عن تحية « المفكرون » يوجهها إلى فى ود من بين أسنانه الصدئة حينما أمر به وهو يوزع «الدوم» على السجناء الأطفال ليصنعوا منه شريطًا هو بعض الصناعة التقليدية فى السجون بالمغرب. سأعيش فى دنيا لا أعرف كيف أواجه ضجتها ونشاطها واتساع آفاقها .

وهمس العون العجوز يحدثنى وكأنه يريد أن يطرد عنى بعض ما أشعر

به من قلق استشفه من وجهى القاسى الصارم الذى لم ينبض بالفرح وهو بودع بوابة السجن ، وكان فى همسه إيقاظ لى من تفكيرى فى المنفى السحيق البعيد :

ـ أنتم يا بنى سعداء . . أكرمكم الله بظلم المعتدين . . أما نحن . . .

وكاد الرجل يشرق بدمعة أسى ، ثم استأنف :

ـ أما نحن ، فقد بقينا فى سجننا الكبير هذا نتجرع كأس الذل ، ونرى القرود والعبيد يجلسون على عرش المملكة ليتيحوا لسادتهم التحكم المطلق فينا . .

وحاولت أن أعزى الرجل ، ولكنى كنت شارد الفكر فما زدت أن طمأنته بأن الظروف لا بد أن تتغير ، ولم يجد فى اقتصادى فى الحديث ما يشجعه على المزيد ، ولكنه زاد بحديثه القصير الهامس فى شعورى بالنفى فى هذا العالم الواسع .

واندفعت فى وجوه المارة من حولى . ففيهم رجال وشباب وشيوخ يلبسون ثيابًا بيضاء نظيفة لا تنبعث منها رائحة السجن ، وجوههم تنبض بالعافية والصحة ، لم تسلب نضارتها رطوبة الزنزانة ولا فساد الهواء فيها . عرفت بعض هذه الوجوه ممن كنت ألفت أن أراها وقد ازدادت فى حسى السجين ، شبابًا وفتوة ، وكأن الأشهر الستة كانت رجعة بها إلى الوراء . وتعرفت على وجه منها كان يسبقنى بالتحية ، ويبدى من الاحترام الزائد ما كنت أضيق به أحيانًا ، فتطلعت إليه بعيون فاحصة فى فضول وكأنى

أحاول أن أقطع الانفصال مع عالمى بتحية أول رجل ألقاه فى عالم الحرية، ولكنه غض بصره وتجاهلنى كغريب آت من غير عالمه، ثم أسرع الخطى فى اضطراب وكأنه لا يحكم فيما تصنع رجلاه .

هؤلاء سكان العالم هم أيضاً يتنكرون لنا كما لم يتنكر لنا « فويلة » و « الباريزيان » ولكنهم مضطرون أن يجعلونا نعيش فى عالمنا الجديد ، عالم المنفى السحيق، وحيدين منفردين...أغلب أولئك الذين يعيشون معنا بالفكر والرأى والعمل ، ما يزالون فى زنازنهم ومنافيهم البعيدة، وأولئك الذين استجابوا لانطلاقة الثورة أخذوا طريقهم واختفوا وراء المسدس والقنبلة والمدفع الرشاش . . وخلا « عالم الحرية » إلا من الانتفاعيين والجبناء والذين يغضون أبصارهم كلما رأوك من بعيد أو تخيلوا أنك ستحييهم .

أى منفى سحيق هذا الذى أسلمتنى إليه بوابة السجن الكبيرة . . . ؟

وسرت بجانب العون أجتر أفكارى ، ولم تكن المحكمة بعيدة ، ولكن — مع ذلك — خيل إلى أنى أسير فى طريق لانهاية لآمادها . .

وأقبلت أخيراً على باب المحكمة فتمثلت لى ذكريات مفتشى الشرطة الذين ساقونى لأول مرة ، واستخرجوا الأمر بسجنى دون أن يرى وجهى القاضى الذى وقع الأمر . . وعادت بى الذاكرة إلى الساعات الطوال التى قضيتها بعد ذلك مع قاضى التحقيق السيد « المراقب» يحاول أن يلصق بى تهمة المس بأمن الدولة . ولو برقم هاتف وجده فى مفكرتى . وتمثل لى كهف المحكمة القذر والزميلة التى استدر سجنى دموعها قبل أن تطلب

إلى دخينة لله . .

ودخلت إلى أبهاء السوق الذى يدعى المحكمة ، وما تزال نفس الصورة ترتسم فى مخيلتى : كل شىء يمكن أن يكون ، إلا أن يكون قصر عدالة . .

ـ اجلس هنا ، وانتظر السيد المراقب .

كذلك هتف بى العون الأسود ذو البرنس الأبيض والقلنسوة الحمراء، بعد أن أسر إليه العون العجوز أنه استقدمنى من السجن ومكنه من أوراقى .

وأطعت . . فما أزال فى نطاق الطاعة ، ولو لخادم مكتب فى محكمة تافهة .

وجلست على باب مكتب السيد المراقب أنتظر ، ولم يطل بى الانتظار ، فقد برز إلى من بين الجماعات المحتشدة هنا وهناك شاب وسيم الطلعة أنيق حتى بنفسه وتصفيف شعره على طريقة الفتيان المخنثين ، يسير وكأنه يرقص على نغم خفيف ، حتى خيل إلى أنه يؤدى دوراً تمثيلياً، فقد كانت هيئته ومشيته لا توحيان مطلقاً بعمله ، وتقدم نحو باب مكتب المراقب يسأل عنه فإذا به يفاجأ بى ولم أكد أتعرف على وجهه حتى اقترب منى ، إنه هو المحامى الذى تكفل بالدفاع عنى ، رأيته مرة حينما زارنى فى السجن ، وهاهى ذى المرة الثانية يفاجأ بى على غير موعد :

ـ أهلا .. لعله سيفرج عنك ؟ أليس كذلك ؟ الحمد لله على

سلامتك . .

وشكرت له تحيته وما زدت ، وقد كان ذكيًّا فيما يظهر بحيث شعر بحاجته إلى الكلام فأردف :

ــ لقد حاولت طويلاً أن يفرج عنك وتحدثت إلى السيد المراقب فى ذلك عدة مرات . . .

وابتسمت ابتسامة سخرية كانت كل تعليق على حديثه ، فعاد يؤكد :

ــ أنت تعرف ألا فائدة من محاكمة ومرافعة ، فحاولت أن يفرج عنك بدون إجراءات . . .

ولم أستطع صبراً فقلت :

ــ وبعد ستة أشهر من سجن دون سببٍ . . ؟

وضحك ضحكة فيها تودد وهو يقول مقاطعًا :

ــ المهم هو النتيجة ، لقد خرجت ، والحمد لله على السلامة .

حاولت أن أستبقى المحامى بعض الوقت أسأله عن مصير القضية ، ولكنه أدرك أنه لم يعد لديه ما يقول بعد أن برئت ذمته بخروجى فشد على يدى فى حرارة مودعًا .

وظللت فى المحكمة ترقبنى عين العون الأسود فى غير فضول ، أتلهى بهذا المجتمع الصاخب الذى يجد فى المحكمة مجالاً لضياع الحقوق ، أكثر مما يجد فيها العدل والإنصاف .

وكان هناك شخص آخر يمر بى فى عجلة وهو يتنقل فى صخب بين مكتب وآخر ، عرفته وقد سبق صوته إلى أذنى جسمه إلى عينى ، فقد كان بجسمه العريض الطويل ورأسه الضخم وقفاه العريض وصوته الجهورى الصاخب ، كان بكل ذلك ينتهز فرصة غياب المراقب ليتمتع بالسلطة والحكم وليتلذذ بإصدار الأوامر وتوزيع التعليمات . ومر بى وهو يرمقنى من تحت هدبه دون أن يواجهنى بعينيه ،ولكنى لمَ أعره أهمية فلم ألتفت إليه .

وظل صوته الصاخب يسمع من بعيد حتى نادانى العون الأسود ذو البرنس الأبيض : أن كلم السيد الترجمان ، فإن المراقب لن يحضر هذا الصباح .

ووقفت بباب مكتب الترجمان فأخذ يملى على تعليماته واقفًا ودون أن ينظر إلى :

ــ لقد قررت المحكمة الإفراج عنك . . موقتًا . . وعليك أن تأتى ، بشخصين يضمنان حضورك لدى المحكمة عندما تطلبك للمحاكمة .

ــ موقتًا . . ؟ وبضمانة شخصين . . ؟

ــ هذه أوامر المحكمة .

قالها الترجمان فى جفاء وغلظه وهو يتشاغل عنى بأوراق بين يديه . وطلب إلى العون أن أستجيب وكأنه يقول : لقد انتهى الأمر .

وابتعدت عن المكتب لأواجه الحقيقة المرة : الإفراج موقتًا ، يعنى

أنى سأظل متهماً إلى أن يصدر الحكم بإدانتى أو براءتى . ستظل حريتى مقيدة فلا أنتقل إلا بإذن المحكمة ، ستظل تهمة المس بأمن الدولة عالقة بذمتى إلى أن يتفضل السيد المراقب بإثباتها فأعود إلى زنزانتى ، أو بنفيها فتنعتق حريتى ، سأظل فى منفاى هذا البعيد متهماً « بالمس بأمن الدولة » وفى استطاعة ممثل الدولة أن يقتص منى فى كل وقت . . ثم ضمانة شخصين ؟ من ذا الذى يستطيع فى عالمى هذا أن يرهن ذمته بذمتى المتهمة بالمس بأمن الدولة ؟ هل أعود أدراجى أبحث عن الذين كنت أعرفهم ثم هم الآن يغضون طرفهم عنى ليضمنوا وجودى كلما طلبتنى المحكمة ؟

أولئك قوم انفصلوا عن دنياى أو انفصلت عن دنياهم ، فلم أعد من عالمهم ، ولا هم من عالمى .

وخطر لى أنَ أعود إلى الترجمان لأطلب إليه العودة إلى زنزانتى فما فى وجودى شخص يقبل أن يكون ضامنًا لى .

فكرت طويلاً ، ثم عزمت على تنفيذ الرأى وعدت إلى الترجمان

ــ لا أعرف شخصًا هنا يضمننى لدى المحكمة ، فلك أن تنفذ القانون .

وفكر طويلاً ثم تعطف :

ــ التحق الآن بأهلك وابحث عن من يضمنك بعد أن تستريح .

خرجت من المحكمة وكلى يأس من عالم الانفصال هذا الذى قذفتنى

إليه بوابة السجن . ووقفت بالباب أنظر إلى الشوارع الواسعة والميادين الضخمة فتمثلت لى كصحراء أخطو فيها خطوتى الأولى نحو التيه . . صحراء لاحد لأبعادها ولا مأمن من سرابها . . ولم أضل طويلاً فقد طلبت سيارة أجرة تحملنى إلى واحتى الظليلة . . . إلى منزلى . .

وعلى الباب الصغير فى المنزل البسيط انفتحت ذراعان رحيمتان لتضمانى فى شوق ، وافتر ثغر طفل صغير عن بسمة سعيدة .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

هذا الكتـــاب

ذكريات تصور تجربة حية عاشها الكاتب فعلاً، و هى تجربة السجن ستة أشهر رهن التحقيق أيام الكفـاح ضد الاستعمار الفرنسى لتحرير الوطن المغربى من سيطرته.

وهذه الذكريات تصور في الواقع قصة مسلسلة الأحداث تعبر تعبيراً صادقاً عن الروح الوطنية العالية التي عمرت بها قلوب الوطنيين من العرب حيث أدركوا أنه لا سبيل الى تحرير أوطانهم بغير البذل و الفداء.

و هذه الذكريات تجمع بعد ذلك بين دقة الوصف و صدق الاستبطان الذاتى واستجلاء المشاعر، كما تجمع بين الروح الشعرية وروح السخرية.

و قد اجتمعت لها عناصر التشويق المختلفة مما يدفع الى المضي فى قراءتها، ومما يجعل منها تجربة تجمع بين المتعة الفنية و الهدف الوطني الرفيع.

٣٠ قرشاً ج.ع.م.	٣٠٠ فلس فى العراق و الاردن	٤٢٠ فرنكاً فى المغرب
٢٤٠ ق. ل	٣٠٠ فلس فى الكويت	٣،١٢ ريالات سعودية
٣٠٠ ق. س	٣٦٠ مليماً فى تونس	٦ شلنات فى البلاد
٣٠٠ مليم فى ليبيا والسودان	٤٢٠ فرنكاً فى الجزائر	٨٦٠٠ دولاراً الاخرى